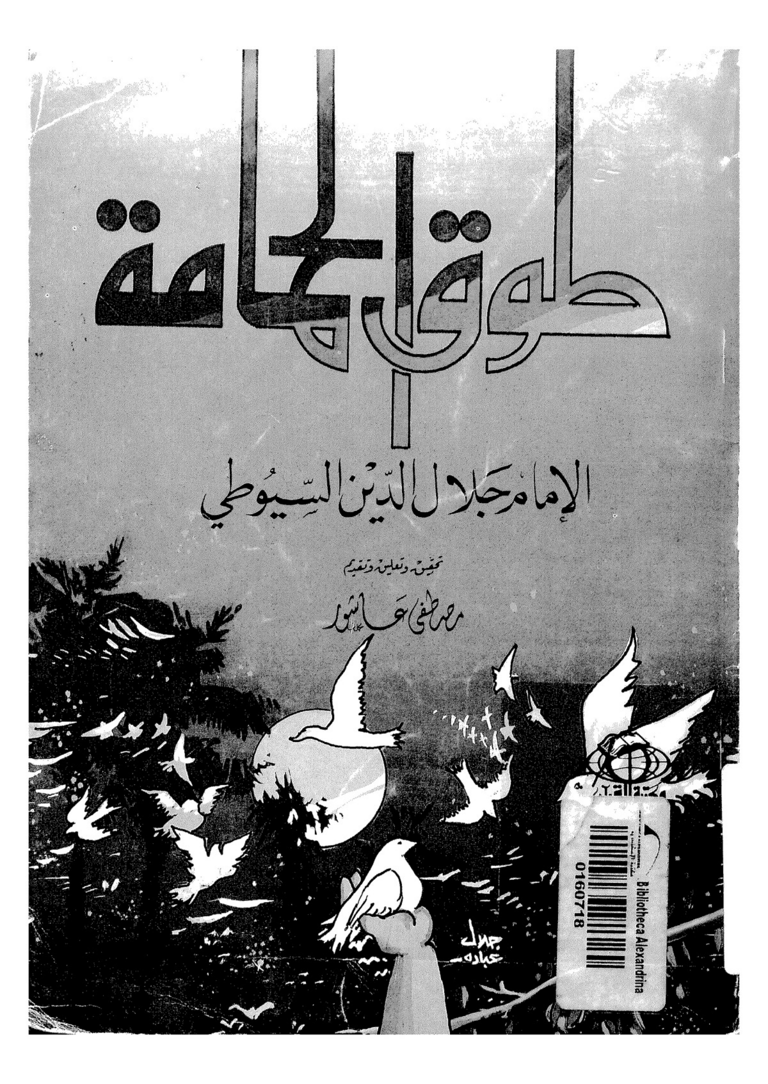


طوق الحمامة
الإمام جلال الدين السيوطي
تحقيق وتعليق وتقديم
مصطفى عاشور
Bibliotheca Alexandrina
01607718
جمال عباره

طوق الحمامة

الإمام جلال الدين السيوطي

تحقيق وتعليق وتقديم

مصطفى عاشور



دراسة التحقيق

أولاً : المؤلف ورحلة حياته

العالم الموسوعة :

يقف العلماء والباحثون أمام هذا العالم الموسوعى وقد تملكتهم الدهشة وسيطر عليهم الإعجاب ..

فعبد الرحمن بن أبى بكر الشهير بجلال الدين السيوطى رجل كثير التصانيف .. متنوع الموضوعات ؛ كاد أن يؤلف فى كل علم كتاباً .. وأن يخرج فى كل فن تصنيفاً .. فقد كتب فى التفسير .. وجمع من الحديث .. ودون التواريخ .. وصنف فى اللغة والنحو والصرف والمعانى .. وألف فى العقائد والأصول .. ثم شرح الأمهات والبطون .. وأدلى بدلوه فى الأدب فنظم ديواناً وأنشأ مقامات .. وهو مامات حتى ورثنا من بعده مما خطت يمينه مكتبة حافلة أوعت حصيلة المنقول السلفى واختزنت خلاصة الفكر الإسلامى ..

مولده ونشأته ووفاته :

جاء السيوطى إلى الدنيا عام ثمانمائة وتسعة وأربعين للهجرة بعيد المغرب من ليلة الأحد فى مستهل رجب .. وكان مسقط رأسه ببلدة أسيوط مسكن أجداده ومأوى أسلافه ..

وتوفى رضى الله عنه فى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة تسعمائة .

حياته العلمية :

يحدثنا السيوطى عن شغفه بالعلم وولعه بالبحث والاطلاع فيقول فى رسالته التى سماها بـ « تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة » فيقول :

« وبعد فإنى رجل حبب إلىَّ العلم والنظر فيه .. دقيقه وجليله .. والغوص على دقائقه .. والتطلع إلى إدراك حقائقه .. والفحص عن أصوله .. وجبلت على ذلك .. فليس فى منبت شعرة إلا وهى ممحونة بذلك » . وقد أتاح المناخ الثقافى الذى عاش فيه أن يتتلمذ على أساتذة كبار جلهم كان رأساً فى علمه وقمة فى فنه . وقد أوتى همة عظيمة وجلداً ومثابرة على العلم والتحصيل حتى كان يحرر فى اليوم الواحد الكراريس ذوات العدد مع قيامه بالتدريس والإملاء ..

يحكى لنا تلميذه الداوودى بعض ما رآه منه فى ذلك فيقول : « عاينت الشيخ وقد كتب فى يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً .. وكان مع ذلك يملى الحديث .. ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة » .

ولقد أهله ذلك أن يكون طالباً محصلاً .. فعالماً نحريراً .. ثم مؤلفاً موسوعياً ليس له نظير فى التأليف كثرة وتنوعاً .

شيوخه :

تتلمذ السيوطى على طائفة من أعلام عصره ومشايخ عهده حيث كان فيهم مفسرون كباراً ومحدثون حفاظ ، وفقهاء فحول ، وعلماء عربية حذاق منهم محى الدين الكافيجى ، وشمس الدين المرزبانى وتقى الدين الشبلى الحنفى وشيخ الإسلام شرف الدين المناوى .. ولم يزل السيوطى البار يذكر مشايخه بالتعظيم والتوقير ، ويثنى عليهم الخير كله .. بل بلغ تقديره لهم أن ألف فيهم معجمه الكبير (حاطب ليل وجارف سيل) حيث دون أخبارهم ، ونوه بمؤلفاتهم وذكر ما تفردوا فيه من العلوم .

ومع هذا فقد أخذ السيوطى العلم من الكتب أكثر مما أخذه عن الأشياخ .. واستقى من الدفاتر فوق ما سمعه من أفواه الرجال .

تلاميذه :

وقد أدى تبحره فى العلم ، ورغبته فى نشره وإذاعته ، وحرصه على إفادته مع ورعه وبصيرته فى الدين إلى التفاف كثير من التلامذة والمريدين حوله ليأخذوا من هديه ويقتبسوا من علومه .. ومن هؤلاء تلميذه ومريده الشيخ محمد بن على الداوودى المالكى ناسخ كتبه ومترجم حياته .. والشيخ زين الدين الشماع الفقيه محدث حلب .. ومنهم محمد بن إياس مؤلف التاريخ المسمى « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ..

وبالرغم من أن السيوطى خرج من تحت يديه تلاميذ كثير فيهم محدثون وفقهاء وعلماء عربية إلا أن جلال السيوطى علّم بالتأليف أكثر

مما خرج التلاميذ بالاقراء والتدريس .

السيوطى وعصره :

عاش السيوطى فى مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة وقد عاصر السيوطى منهم ثلاثة عشر سلطاناً حيث كانت مصر تعيش فترة من الرخاء والسعة مما هيأ ظروفاً طيبة ومناخاً مناسباً للثقافة حيث كثرت المدارس فى عصر المماليك يبنيها الأمراء والتجار وحتى النساء.. وقد كان احتكار المماليك للسياسة سبباً فى جعل العلماء يتفرغون للعلم بحيث نبغ منهم عدد كبير فكان السيوطى واحداً منهم .. وقد ازدهر فى ذلك الوقت علم التاريخ ..



ثانياً : الكتـاب

★ مضمون الكتاب :

قد جاء هذا الكتاب إجابة عن سؤال . وجه إلى الإمام السيوطى ، ورتب الإجابة على :

(١) مقدمة ..

(٢) ومقصد ..

(٣) وخاتمة ..

والكتاب متعة وأى متعة !! ، وهو دليل على أن السيوطى جدير بالكتابة فى كل مسألة حتى أنه ليجعل من الإجابة عنها « مُصنَّفا » .. ولقد أثبت أنه قادر على ذلك من فُضل الله !!

فهاهوذا يعرفنا فى **المقدمة** بالحمام ، والفرق بينه وبين اليمام .

ثم يحدثنا عن طباعه فى سِفَادِه ، وبيضه فى رقة وعذوبة ، تستهويان القارىء وتجذبانه حيث **يطير** الحمام ، وحيث **يحط** وعندما ينتقل إلى **المقصد** ، فانه يتناول بالتعليق والتخريج ما جاء من الأحاديث فى اتخاذه ، وحسبك من السيوطى حملُه لواء الحديث :

إذا قالتْ حذامِ فصدِّقوها
فإن القـولَ ما قالـــت حَذَامِ

ولا يفوته أن يحدثنا عن بيان حكم حبسه فى الأقفاص ، واللعب به بالتطيير والمسابقة . ولا ينهى مقصده حتى يحدثنا عن حمامة الغار ، ومعانى تسبيح بعض الطيور .

ولا يكاد يصل إلى الخاتمة حتى يصحبنا فى رحلة مع الأدباء والشعراء ، وما قالوه فى وصف الحمام .

لقد جمع السيوطى فأحسن الجمع .. واختار فأجاد الاختيار !!

وأثبت للجميع أنه يستطيع أن يكتب فى كل مسألة « مُصَنَّفاً » !!

تُرى هل كنا نظفر بمثل هذه الدراسة الجادة لو لم يقصد السيوطى لها ؟

الحق أن معايشة السيوطى متعة وبخاصة إذا كانت عن « الحمام » !!

وإذا كان الإنسان لا يحيا بالخبز وحده ، فإن علينا أن نلون غذاء العقل والروح فيما نقدِّمُهُ للناس .

ومن هنا كان اختيارى لكتاب « طوق الحمامة » حين عثرت عليه **بدار الكتب المصرية** [تحت رقم ٩٦ طبيعيات تيمور . ميكروفيلم رقم ٤٢٠٩٣] .

ولقد راعيت كثيراً من الجوانب النفسية للقارىء بهذا الاختيار فهل ترانى وفقت ؟

أرجو الله التوفيق فيما قصدت ،

أما كتاب :

« طوق الحمامة »

فقد جاء فى سلسلة الفهارس — مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر — مكتبة الجلال السيوطى ، فى السجل الذى يجمع ويصف مؤلفاته ما يأتى تحت (رقم ٤٤٨) :

« نسبه إليه **حاجى خليفة** فى كشفه » .

« **والعظم** فى عقوده » .

« والبغدادى فى هدية العارفين » .

« أوله : الحمد لله مجير الحمام فى البيت الحرام » .

« يوجد مخطوطاً بالاسكوربال ضمن مجموع » .

منهج التحقيق

لقد اعتمدنا على المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٦ طبيعيات تيمور « ميكورفيلْم » برقم ٤٢٠٩٣ .

وهو يقع فى سبع وأربعين صفحة لم تسلم من التصحيف والتحريف كما تبين لى عند الرجوع إلى النصوص المنقولة فى مصادرها نثرية كانت أم شعرية .

ولقد قمت بضبط الأبيات ، وشرح ما غمض من الكلمات والعبارات ، والتعليق على ما يحتاج منها إلى تعليق مع مراعاة علامات الترقيم ، والرسم الإملائى الحديث .

كما قمت بتوثيق ما جاء بالكتاب من حديث عن طباع الحمام وصفاته بدءًا بالرجوع إلى أرسطاطاليس فى كتابه وختاماً بدوائر المعارف الخاصة بالحيوان .

وكان من بين ما رجعت إليه :

- عالم الطير فى مصر ـــ أحمد محمد عبد الخالق .
- تاريخ البريد فى العالم ـــ جمال العرابى .
- الحمام ـــ دكتور عز الدين فراج .
- مع الطير ـــ أحمد أمين ـــ فيض الخاطر .
- أصل الأنواع ـــ داروين .

والله من وراء القصد والحمد لله أولاً وأخيراً ،،

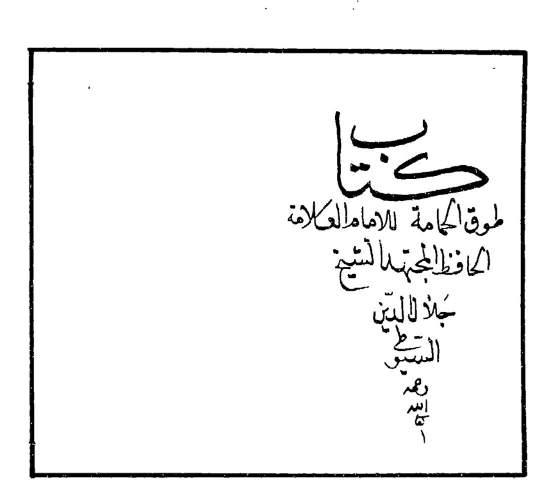
القاهرة فى جمادى الأولى سنة ١٤٠٧ هـ ، يناير سنة ١٩٨٧

مصطفى عاشور



طوق الحمامة

الإمام جلال الدين السيوطي



كتاب
طوق الحمامة للامام العلامة
الحافظ المجتهد الشيخ
جلال الدين
السيوطي
رحمه
الله
تعالى

الصفحة الأولى من المخطوطة

مقــدمة المـؤلف

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمدُ لله مجيرُ الحمام فى البيت الحرام ..
والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله وصحبه الكرام .
هذا تأليف فى «**الحَمَام**» يسمى :

«طَوْقَ الحَمَامَة»

دعا إلى تأليفه سؤالٌ سُئِلْتُه :
هل ورد أنَّ رجلاً شكا إلى النبى ﷺ «**الوَحشة**» فأمره أن يتَّخِذَ **«زوج حَمامٍ»** ؟!!

ورتبته على :
« أ » مقدمة ..
«ب» ومَقْصِد ..
«جـ» وخاتمة ..

جلال الدين السيوطى

الحمام فى اللغة والفرق بينه وبين اليمام

فى لفظ الحمام لغة ومايطلق عليه والفرق بينه وبين اليمام وذكر طباعه فى سفاده وبيضه .

قال الجَوْهرىّ :[1]

« الحَمامِ عند العرب : ذواتُ الأطواق نحو :
الْفَواخِت[2] ، والقَمارى[3] ، وساقُ حُرٍّ ، والقَطَا ، والوَرَاشين[4] .
وأشباهُ ذلك .
يقع على الذكر والأنثى ؛ لأن الهاء إنما دخلته على أنه واحد من جنس ، لا للتأنيث » .
وعند العامة : أنها الدواجن فقط .
الواحدة : حمامة .

○ قال حميدُ بن ثور فى قُمْرية :
وماهاجَ هذا الشوقَ إلا «حمامةٌ»
دعت «ساقَ حُرٍّ» بُرهةً فَتَرَنَّما[5]

(١) صاحب كتاب الصّحاح .
(٢) الفواخت جمع فاختة . وهى الحمامة ذات الطوق .
(٣) القُمْرِيَّة بضم القاف : كما يقول القاموس : ضَرْبٌ من الحمام والجمع قمارىّ ، وقُمْرٌ . أو الأنثى قُمْرِيَّة ، والذكر ساق حُرّ .
(٤) الوَرَشان (محركة) : طائر وهو «ساق حُرٍّ» لحمه أخف من الحمام والجمع وِرْشان ووراشين .
(٥) بقية الأبيات فى العقد الفريد (جزء ٦) ص ٢٦٠ دار الكتب العلمية :
مُطَوَّقةٌ خطباءُ تسجع كلما دنا الصيف وانزاح الربيع فأنجما

○ وقال النابغة فى القطا فيما ذكره الأصمعى :

وآحْكُمْ كحُكْمِ فتاةِ الحَىِّ إذْ نظَرت إلى حمامٍ سراعٍ واردِ الثَّمَدِ

فقالت :

ألا لَيْتَما هذا الحمامُ لنا إلى حمامتنا أو نصفُه فَقَدِ[٦]

---

* **تغنت على غصن عشاء فلم تدع لنائحةٍ فى نوجهـا مُتَلَوَّمـا**
فلم أر مثلى شاقه اليوم مثلُها ولاعَرَبِيًّا شاقه صوتُ أعجما

والحمامة هنا : القُمرية .

ويقول ابن عبد ربه : الحمامة تبكى ، وتغنى ، وتنوح ، وتغرد ، وتسجع ، وتقرقر ، وتترنم وإنما لها أصوات سجيع لاتفهم فيجعله الحزين بكاء ، ويجعله المسرور غناء .

(٦) إن فتاة الحى قد نظرت إلى قطا واردٍ فى مضيق الجبل ، فقالت : ياليت هذا القطا لنا ومثل نصفه معه إلى قطا أهلنا ، فيكمل لنا مائة قطاة ، فاتبعت وعُدَّت على الماء فإذا هى ستٌ وستون قال أبو عبيدة : رأته عن مسيرة ثلاثة أيام وأرادت بالحمام القطا فقالت ذلك .

وفتاة الحى زرقاء اليمامة . ويقصد كن حكيما كفتاة الحى إذا أصابت وجعلت الشيء فى موضعه ، وهى لم تحكم بشيء ، إنما قالت قولا فأصابت فيه ، ويقول التبريزى فى شرح القصائد العشر معناه : كن فى أمرى حكيما ، ولا تقبل ممن سعى بى .

والثمد : الماء القليل .

ويُروى الحمامَ والحمامُ ، وكذلك نصفَه ، ونصفُه ، فإذا نصبته تكون مازائده وليت عاملة ، ونصف معطوف على المنصوب .

وإذا رفعته تكرن كافة لليت عن العمل ، ويصير مابعدها مبتدأ وخبرا كما تقول : إنما محمد منطلق ، وقد بمعنى حسب .

ونعود فنقول : كم كان عدد الحمام الذى رأته زرقاء اليمامة ، فأحصته عددا من نظرة واحدة ؟

يجيب النابغة فيقول :

فحَسَّبوه فألَفوه كما حَسبَت تِسْعاً وتسعين لم تَنْقُصْ ولَمْ تَزدِ

وكان الحمام الذى راته ستة وستين ، ولها حمامة فى بيتها فلما عدت الحمام الذى رأته قالت :

○ وقال الأموى : الدواجن التى تُسْتَفْرَخُ فى البيوت تسمى : حماما أيضا .

وجمع الحمام : حمائم ، وحَمَامات .

وربما قالوا : حمامٌ للمُغَرِّد .

قال :

وذَكَّرَنى الصِّبَا بعد التَّنائى حمامةُ أيْكَةٍ تَدْعو حَمَامَا[٧]

○ وقال الأَصمعىُّ :[٨]

الحمام هو : البَرِّىّ .

واليمام : هو الذى يألف البيوت[٩] .

○ ونقل الازهرى عن الشافعى :

أن الحمام : كلُّ ماعَبَّ ، وهَدَر ، وإن تفرقت أسماؤه . والعَبّ : شِدَّةُ جَرْعِ الماء مِن غيرِ تنفس .

والهديرُ : ترجيعُ الصوتِ ، ومواصلتُه من غير تقطيعٍ له .

- **ليت الحمام ليه إلى حمامتيه**
ونصفه قديه تم الحمامُ ميه

[**القصائد العشر ــ شرح الخطيب التبريزى ــ بتصرف**]

(٧) ربما قالوا : حمام للمفرد . والبيت المذكور أتى به الدميرى فى معرض الدليل على ذلك ، وهو لجران العَوْد . والأيكة : الشجرة ملتفة الأغصان وقد جاءت فى القرآن ﴿**كذب أصحاب الأيكة المرسلين**﴾ [الشعراء : ١٧٦]

(٨) فى كتاب الطير الكبير .

(٩) ذكر الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجه فى كتابه قصة الأدب فى مصر هذا الكلام من أول المقدمة منسوبا إلى الشيخ كمال الدين الدميرى من كتابه « **حياة الحيوان** » بادئا بقوله : الحمام : قال الجوهرى الخ .. ثم قال : وحكى أبو حاتم عن الاصمعى فى كتاب الطير الكبير : أن اليمام هو الحمام البرى الواحدة يمامة وهو ضروب الخ .

○ **قال الرافعى** :[10]

والأشبه : أن ماعَبَّ هدَر ؛ فلو اقتصروا فى تفسير الحمام على « **العَبِّ** » كفى لهم .

يدل عليه : أن الشافعى قال فى عيون المسائل :

وماعبَّ من الماء عبًّا فهو حمام .

وماشَرِبَ قطرةً .. قطرة كالدجاج ، فليس بحمام .



---

(١٠) الرافعى : هو أحد أئمة اللغة ، وقد قام العلامة الفيومى بتأليف كتاب المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى . وكتاب الرافعى يسمى الوجيز .

أنواع الحمام

قال الكمالُ الدُّمَيْرِى :[١١]

الحمام الذى يألف البيوت قسمان :

بَرِّىٌّ : وهو الذى يلازم البروج .

وأهْلِىٌّ : وهو أنواعٌ مختلفة ، وأشكالٌ متباينة :[١٢]

الرواعب ، والمراعيش ، والعدّادُ ، والشدّادُ ، والمضَرّب ، والقلّاب .

والمنسوب : وهو بالنسبة إلى ماتقدم كالِعتاق[١٣] من الخيل . وتلك كالبراذين .



(١١) الدُّمْيرى : هو الشيخ كمال الدين الدُّميرى المتوفى سنة ٨٠٨هـ والنص من كتابه حياة الحيوان .

(١٢) صنوف الحمام كثيرة ، وقد قدر الباحثون عددها بنحو ٢٩٠ صنفاً . منها نماذج بديعة رائعة الجمال .

(١٣) عتاق الخيل : كرامها ، والبراذين جمع برذون : دابة الحمل الثقيلة والتركى من الخيل [المنجد] وفرق كبير بين عتاق الخيل والبرذون كما بين المنسوب وغيره من أنواع الحمام ، فالبراذين غير عتاق الخيل !! فشتان ما بينهما !

النصع من الحمام كالصقلابى من الناس وهو الأبيض

○ **قال الجاحظ :**

النُّصَّع من الحمام كالصقالبة من الناس وهو الأبيض وفى التِّبيان : الحمام : أهلى ووحشى ، وسُوق ، وطرامرلى ، وهو حلال بجميع أنواعه .

وكل طائر يعرف بالزواج ، وبحسن الصوت ، والهديل ، والدعاء ، والترجيع ، فهو « **حمام** » وإن خالف بعضُه بعضا فى الصورة واللون ، وفى بعض الهديل والنوع .

كذا عرّفه الجاحظ(١٤) .

○ **وقال أبو حاتم فى « كتاب الطير » :**

العربُ لا تعرف حمام الأمصار ، إنما يسمونه : **الحصر** . وإنما الحمام عند العرب :

القطا ، والقُمَارى ، والدباسى ، والوَراشين ، والفواخت وساقَ حُرٍّ .

ونحوهن ضروب كثيرة وحشية .

○ وذكر ابن قُتَيْبَة وغيره :

---

(١٤) أبو عثمان عمرو بن بحر [١٦٠هـ — ٢٥٥هـ] عاش قرابة قرن من الزمان بلغ فى سعة ثقافته وعمقها مالم يبلغه أحد فى عصره .

أن المعروف عند العرب أن **الحمام** : ذوات الأطواق ومأأشبهها من الفواخت ، والقماري ، والقطا[١٥] ،

وأمّا **الدواجنُ** فى البيوت فهى ومأأشبهها من طير الصحراء اليمام .

○ **وقال أبو حاتم :**

الفرق بين الحمام واليمام : أن أسفلَ ذنَبِ الحمام مما يلى ظهرَها بياض ، وأسفل ذنَب اليمام لابياضَ فيه .

والمراد بالطوق : الخُضْرة ، أو الحمرة ، المحيطة بعنق الحمام .

وفيه يقول الفرزدق :[١٦]

لِمنْ يَكُ خائفاً لأداةِ شِعْرى فَقَدْ أَمِنَ الهجاءَ بَنُو حَرام

همُ رَأَوا سَفيههم وخافوا فلم يُرَ إلا مثلَ أطواق الحمام

وفى المثل :

«تقَلَّدها طوق الحمامة»[١٧]

لأنه لايُزَايِلُها ، ولايفارقها .

وقال :

اذهب بها اذهب بها طُوِّقْتَها طوقَ الحمامة

---

(١٥) ويقول ابن عبد ربه فى العقد الفريد الجزء السادس : كل مطوقة عند العرب حمامة ، كالدُّبْسِىّ ، والقُمْرِىّ ، والورشان ، ومأأشبه ذلك ، وجمعها حمام . ويقال «**حمامة**» للذكر والأنثى ، كما يقال «**بطة**» للذكر والأنثى ، ولايقال : حمام إلا فى الجمع .

(١٦) هو أبو فراس همام بن غالب التيمى أحد الشعراء البارزين فى العصر الأموى — ومن الظواهر الأدبية التى وضحت فى العصر الأموى المعركة الهجائية التى نشبت بين الشعراء ، وكان الفرزدق أحد أعمدتها .

(١٧) جاء فى أساس البلاغة للزمخشرى : ومن المجاز : طوقنى نعمةَ وطُوِّقْتُ منه أيادى وتَقَلَّدْتُها طوق الحمامة ، وتقول : فى عنقى من نعمته طوق ، مالى بأداء شكره طوق (أى طاقة) .

○ **قال ابن العماد :**

وقد انتظم من كلام الشافعى وأهل اللغة أن الحمام : يقع على الذى يألف البيوت ، ويُسْتَفْرخ فيها ، وعلى اليمام والقُمرى ، وساق حُرٍّ ، وهو ذكر القمرى ، والفاختة، والدبس والقطا ، والورشان ، واليعقوب ، والقبج[18] ، والحجل ، والدُّرَّاج ، والشعس ، والراعى ، والوردانى ، والطورانسى ، وقد ذهب المراوزة[19] : إلى أن الجميع فى الرِّبا جنس واحد .

وقال العراقيون :

كل نوع منه جنس .. الحمام جنس ، والفواخت جنس ، والقُمارى جنس[20] .



(١٨) القبج : طائر يشبه الحجل ، والواحدة قبجة تطلق على الذكر والأنثى .
(١٩) جمع مَرْوَزى . نسبة إلى مرو من بلاد فارس .
(٢٠) وعليه فلا ربا عند العراقيين فى تبادل الجنسين .

قولهم : آلفُ من حَمامِ الحرم ، وأخرقُ من حَمامةَ وأحْمَق !!

وفى المثل : «آلَفُ من حمام الحرم»

«وآمنُ .. واخرَق من حمامة .. وأحمق»

لأنها لاتُحْكِمُ عُشَّها ، فإذا هبت الريح كان ماتَكَسَّر أكثر مما سلم[٢١] !!

قال عبيدُ بن الأبرص :[٢٢]

عَيُــوا بأمرِهـــم كما كما عَيَتْ ببيضتِها الحمامة

جعَلتْ لها عُودين مِنْ بشــم وآخرُ من ثمامه

---

(٢١) وهذا دليل على خرقها وعدم إحسانها عملها ، فهى خرقاء ! أما المثلان الآخران فقد جاء فى كتاب الأمثال :

وأما قولهم : «**آمنُ من حمام مكة**» فهو غير قولهم : «**آمنُ من الأرض**»

فالأول : من الأمن ؛ لأنها لاتُثار ولاتُهاج .

أما الثانى فمن الأمانة ؛ لأن الأرض تؤدى ماتودَع ويقولون أيضا آلفُ من حمام مكة .

(٢٢) عَبِيد بفتح العين وكسر الباء . هو عبيد بن الأبرص الأسدى أحد فحول شعراء الجاهلية وقدمائهم . وله بائية مشهورة جاء فيها :

من يسأل النــاس يحرمــوه وسائــــــل الله لايخيب

ساعدْ بأرْض إنْ كنتَ فيها ولاتقُــــلْ : إننــــى غريب

وقد جاء فى مجمع الأمثال للميدانى تعليقا على المثل : «أخرق منْ حمامة»

لأنها لاتُحكِمُ عُشّها ، وذلك أنها ربما جاءت إلى الغصن من الشجرة فتبنى عليه عُشّها فى الموضع الذى تذهبُ به الريح وتجىء ، فبيضُها أضيعُ شىء ، ومايتكسر منه أكثر مما

طِبَاعُ الحَمَام

روى أحمد فى الزهد عن يزيد بن ميسرة أن المسيح ــ عليه السلام ــ كان يقول لأصحابه :

«إن استطعتم أن تكونوا بُلَهَاء فى مثل الحمام فافعلوا»

قال : وكان يقال : ليس شيء أبله من الحمام .. إنك تأخذ فرخيهَ من تحته فتذبحهما ؛ ثم يعود إلى مكانه ذلك ، فيُفرِخ فيه !!

وأخرج ابن عدى وابن عساكر من طريق محمد بن إسحق العكاش ، عن الأوزاعى ، عن مكحول والقاسم ــ أنهما سمعا أبا أُمامة يقول : إن رسول الله ﷺ قال : **«إن أخى عيسى بن مريم قال للحواريين يوما : (يامعشرَ الحواريين كونوا فى الشَّرِّ بُلَهاء كالحمام . وكونوا فى الاجتهادِ والحذر كالوحش ، إذا طلبها القنَّاصُ»** .

وأخرج ابن عساكر عن وهب قال :

قرأت فى الإنجيل : أن المسيح قال للحواريين : كونوا حكماءَ كالحيات ، وبُلَهاء كالحمام» .

يَسْلم ، قال عبيد بن الأبرص :

عيوا بأمرهم .. الخ البيتين .

ويروى وعوداً من ثمامة بدلا من وآخر وهو يصفهم بالعجز والعِىِّ والخرق وسوء التصرف .

أما الثَّمَم : فكما يقول القاموس ــ مُحَرَّكة ــ شجر للقِسِىّ .. والثُّمَّةُ القبضة من الحشيش ، والثُّمامُ نبت واحدته بالهاء ويقال لما لايَعْسُر تناولُه : **«على طرف الثُّمام»** لأنه لايطول ، فيكون العُشُّ هيِّن المتَناوَل .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال :
استقرت السفينة على «**الجُودِىّ**»(٢٣) فبعث نوح الغرابَ ليأتيه بالخبر ، فذهب ، فوقع على الجِيَف فأبطأ عليه !!

فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ، ولطخت رجليها بالطين ؛ فعرف نوح أن الماء نَضَب(٢٤) .

وقال أميةُ بن أبى الصلت :(٢٥)

فأُرْسِلَتِ الحمامةُ بعد سبعٍ	**تَزِلّ على المهالِك لاتهابُ**
تَلَمَّسُ هل ترى فى الأرض عيناً	**وعانية من الماء العُبابُ**
فجاءت بعدما ركضَتْ بقِطْفٍ	**عليه الشَّطْءُ والطين الكُبابُ**
فلما فرسوا الآيات صاغوا	**لها طوقا كما عقد السحابُ**
إذا ماتت تُوَرِّثُه بنيها	**وإن تُقْتَل فليس لها استلابُ**

وروى أبو داود والنسائى عن ابن عباسَ : أن النبى ﷺ قال : «**يكون**

---

(٢٣) يقال : إنه جبل «**أرارات**» فى آسيا الصغرى [الأناضول ــ تركيا] وهو القول الراجح .

(٢٤) جف ، وانحسر عن الأرض ، وقد عبر القرآن عن ذلك بقول الله تعالى : ﴿**وغيضَ الماءُ وقُضِى الأمرُ واستوت على الجودى**﴾ [هود : ٤٤]

(٢٥) هو عبد الله بن أبى ربيعة الثقفى نشأ بالطائف جاهليا يلتمس المعارف الدينية متعبداً راجيا أن يكون نبى العرب ، حتى إذا كانت بعثة النبى ﷺ نَفَسَها عليه ، وناضله مع أعدائه حتى مات بالطائف سنة ٩هـ . ويروى أبو الفرج الأصبهانى : أنه أكثر من ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية ، وحرم الخمر ، والتمس الدين وطمع فى النبوة ، لأنه قرأ فى الكتب أن نبيا يبعث من العرب ، فكان يرجو أن يكون هو ، فلما بعث النبى ﷺ قيل له : هذا الذى كنت تنتظر وتقول فيه . فحسده عدو الله وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه . فأنزل الله فيه : ﴿**واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها**﴾ [الأعراف : ١٧٥] ونجد الحمامة فى البيت الأول تسقط على المهالك غير هيابة ويحدثنا فى البيت الثانى أنها راحت تواصل البحث عن عيون الماء .

فى آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لايريحون[٢٦] رائحه الجنة » .

وروى ابن عدى عن جابر :

أن النبى ﷺ قال **« شكت الكعبةُ إلى الله قلة الزُّوَّارِ لها ، فأوحى الله إليها : لَأَبْعَثَنَّ أقواماً يحنون إليك كما تَحِنُّ الحمامة إلى فَرْخها »**

قال الدُّمَيْرى :

فى طبع الحمام أنه يطلبُ وكره ، ولو أُرْسِلَ من ألف فرسخ .[٢٧] .

■وعندما رأت الماء قد انحسر أتت بما يدل على ذلك جاءت بقطف عليه الأوراق وفى أصوله طين الأرض . [والشطء : الورق] وفى القرآن : **﴿أخرج شطأه﴾** . [الفتح : ٢٩] .

وعندئذ عرفوا قدرها ، وصاغوا لها طوقا .. يرثه أبناؤها من بعدها ، ولايمكن سلبه !

(٢٦) لا يَشَمُّون رائحتها . والحديث صحيح ذكره السيوطى فى الجامع الصغير .

(٢٧) الفرسخ : ثلاثة أميال هاشمية .

وقيل : اثنا عشر ألف ذراع . وهى تقريبا ثمانية كيلو مترات . وربما تساءل الكثيرون عن سر هذا الحمام العجيب وعن قدرته الخارقة على اكتشاف الطريق ، والاهتداء إلى أى مكان يرسل إليه .. ؟!

ولابد من التنبية هنا إلى نقطة هامة بل خطأ شائع .. فالحمام الزاجل لايكتشف أى طريق ، ولايهتدى إلى أى مكان يرسل إليه .. إنه يكتشف الطريق إلى موطنه فقط ، ويهتدى إلى بيته فحسب .. ! أى أنك لو أردت أن تبعث برسائلك من مصر إلى الكويت لكان عليك أن تأتى بهذا الحمام من الكويت ليقوم بهذه المهمة ، وإن كان الحمام الزاجل قد نجح فى نقل خبر هزيمة نابليون فى معركة **« واترلو »** إلى **« لندن »** فما ذاك إلا لأن العاصمة البريطانية كانت موطن ذلك الحمام .. فيها كان بيته ، وفيها دُرِّب .

على أن التدريب المقصود هنا لايتعدى تعريف الحمام ببيته ، وتمييز هذا البيت عن سائر البيوت الأخرى وليس تدريبا على الطرق . فالحمام الزاجل يقوم برحلات العودة إلى بيته دون تدريب على الطرق التي قد يسلكها إلى موطنه . ويقطع فى ذلك آلاف الأميال دون أن يضل السبيل !! إنها قدرة خارقة ولاريب ، وقد عجز العلم عن تفسيرها حتى الآن ! وكل ماوصلوا إليه لايعدوا التكهنات ، كالقول إن الحمام الزاجل مجهز بحواس وأعضاء■

ويحمل الأخبارَ ويأتى بها من المسافات البعيدة فى المدة القريبة . وفيه مايقطع ثلاثة آلاف فرسخ فى يوم واحد .

وربما اصطبر وغاب عن وطنه عَشْرَ حجج[٢٨] ، وهو على ثبات عقله ، وقوة حفظه ، ونزوعه إلى وطنه ، حتى يجد فرصة فيصير إليه .

وسباع الطير تطلبه أشد الطلب ، وخوفه من الشاهين أشد من خوفه من غيره ، وهو أطْيَرُ منه ومن سائر الطير كله ، لكنه يُذْعَرُ منه ، ويعتريه مايعترى الحِمارَ إذا رأى الهِرَّ !!

وفى عيون الأخبار لابن قتيبة عن المثنى بن زهير قال : لم أر شيئا من رجلٍ وامرأة إلا وقد رأيتُه فى الحمام[٢٩] : رأيت حمامة لاتريدُ إلا ذكَرَها !! وذكراً لايُريدُ إلا أنثاه ، إلى أن يَهْلِكَ أحدهما ، ويفقدها !!

ورأيت حمامةً : تتزين للذكر ساعة يُريدها !!

ورأيت حمامة : لها زوج وهى بمسكن آخر مائغدوه !!

■ تمكنه من معرفة الطرق بواسطة الملاحة الشمسية .

ومما يذكر أن الحمام الزاجل يتوقف عن الطيران ليلا ، ولايواصل رحلته إلا فى وضح النهار .

(٢٨) عشر سنوات ، وفى القرآن الكريم ﴿**على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك**﴾ [القصص : ٢٧] .

(٢٩) ويقول الدكتور أحمد أمين فى مقال له تحت عنوان : «**مع الطير**» « ظريف هذا الحمام غزله علم الإنسان الغزل ، يدعو فتتمنع ، ثم تجيب وتلوى عنه عنقها » ، « ثم يتعاشقان ويتطاوعان » ثم ماشئت منه من رشف وتقبيل ، ثم ماشئت منها من تيه ودلال ، ثم ماشئت منهما من فرح ومرح بالوصال .

ثم هو لطيف فى حنانه على ولده ، أرأيت كيف يقلب بيضه ؛ حتى تنال جوانب كل بيضة حظها من حرارته وحَضْنه ؟ وهل رأيت عنايته بعشه كيف يتخير مكانه ، وكيف يتخير عيدانه ، ثم ينسجها نسجا متداخلا ؟ وكيف يهندسه ليحفظ البيض من التدحرج ، ثم يتعاون الذكر والأنثى على العش ـــ وينقل عن الجاحظ قوله ـــ « يسخنانه ويطيبانه ،

ورأيت حمامة : تقمط حمامة ، ويقال : إنها تبيض عن ذلك !! ، ولكن لايكون لذلك البيض فراخ .

ورأيت ذكرا : يقمط ذكراً !!

ورأيت ذكرا : يقمط كلَّ من لقى ولايزاوج !!

ورأيت انثى : يقمطها كل من يراها من الذكور ولاتتزاوج!!

وليس من الحيوان من يستعْمِل التَّقْبيل عند السِّفادِ(٣٠) سواه !!

وهو عفيف فى السِّفاد يجر ذنَبَه على أثره ؛ ليعفوَا أثر الأنثى كأنه قد علم مافعلت ، ويجتهد فى إخفائه !!(٣١)

وهو يَسْفِدُ لتمامِ ستةِ أشهر .

والأنثى تحملُ أربعة عشر يوما ، وتبيض بيضتين : يخرج من الأولى **ذكر** ، والثانية **أنثى** !!

وينفيان عنه طبعه الأول ، ويحدثان له طبيعة أخرى مشتقة من طبائعهما ، ومستخرجة من رائحة أبدانهما ، لكى تقع البيضة إذا وقعت فى موضع أشبه المواضع بأرحام الحمام » .

(٣٠) السِّفادُ : يقال سفَد الذكر على الأنثى سِفاداً بكسر السين أى نزا . [العملية الجنسية] .

وقمطه : شد يديه ورجليه ، ويقول أرسطو طاليس فى كتابه طباع الحيوان [ترجمة يوحنا البطريق] وتحقيق وشرح الدكتور عبد الرحمن بدوى : ويعرض للحمام شيء خاص بها فى أوان السِّفاد : أن يقبل بعضها بعضا إذا أراد الذكر أن يعلو الأنثى . وليس يكاد أن يسفد الذكر قبل أن يفعل ماذكرنا ، إلا بعد الكبر . فأما الشباب فليس يسفد قبل أن يقبل الأنثى . ثم يدع ذلك عند الكبر .

وإناث الحمام يعلو بعضها بعضاً إذا لم يكن ذكر فى قربها ، وليس يعلو بعضها بعضا إلا بعد القبل ، كما تفعل الذكورة [ص ٢٤٨] .

(٣١) لقد لفت القرآن أنظارنا إلى ما فى حياة الحيوان والطير لنا من دروس عندما بعث غرابا يبحث فى الأرض ليُرى أحد ابنى آدم كيف يوارى سواة أخيه بعد قتله إياه .. ولفت أنظارنا على لسان «نملة» أفلا نواصل المسيرة لنتلقى كل يوم مزيدا من العبر والدروس النافعة ؟ أليس الإنسان أولى بالستر على حليلته ؟! إن فى حياة الحمام دروسا بالغات .

وبين الأولى والثانية يوم وليلة .

والذكر يجلس على البيض ويسخنه جزءًا من النهار ، والأنثى بقية النهار ، وكذلك فى الليل !!

وإذا باضت الأنثى ، وأبت الدخول على بيضها لأمرٍمّا ضربها الذكر ، واضطرها للدخول !

وإذا أراد الذكر أن يسفدَ الأنثى أخرج فراخَه من الوكرَ(٣٢) وإذا خرج الفرخ من البيض مضغَ أبوه **ترابا مالحاً** وأطعمه إياه ؛ ليسهلَ به سبيل الطعم(٣٣) .

وزعم أرسطو : أن الحمام يعيش ثمان سنين .

---

(٣٢) ماأشد حاجة الإنسان الذى كرمه الله بالعقل والعلم إلى شيء من الحياء وصيانة ماء الوجه بعد أن تبلدت المشاعر والأحاسيس ، وراحوا يمارسون الجنس على مرأى ومسمع ويقول الدكتور أحمد أمين : « ليت كل أسرة تربى فى بيتها حماماً وترقب عيشته ، فيتعلم منه الآباء كيف تكون العناية ، وكيف يكون الحنان ، ويتعلم منه الأبناء كيف يجازون جهد الآباء وتضحيتهم .

وإذا خرج الفرخ نفخا فى حلقة حتى يتسع ممر الغذاء لعلمهما أن آلات ممر غذاء الفِراخ لا تحتمل الطعام فيزقانه أولا باللعاب المختلط بالطعام مكان اللبن ، ويعلمان أن حوصلته تحتاج إلى دبغ فيأكلان من سفوح الحيطان .

(٣٣) يقول القزوينى فى كتابة «**عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**» « إذا وضعت الأنثى البيض يتناوبان عليه الحضن بعدما سخَّنا موضعهما ، ويقلبان البيض فى أيام الحضن ، وأكثر على الأنثى التى تتكفل بالحضانة ، فإذا صارت فراخا ، فأكثر الزَّقِّ على الذكر كالرجل الذى يتكفل بالنفقة .

ثم يقول : وترى عجبا بين زوج الحمام من الملاعبة والغُنْج مثل مايجرى بين الناس من القبلة والمعانقة وغيرهما .

ورأيت حمامة تسجد لذكرها حال طلبه ، وحمامة لاتسجد إلا مع شدة الطلب ، ورأيت ذكرا له أنثيان يحضن بيض هذه وهذه ، ورأيت أنثيين يتساحقان كسحاق النساء ..

الرَّاعِبيَّة :

ومن الحمام «**الراعبية**» منسوبة إلى أرض يقال لها : **راعب** .

الوزى :

ومن الحمام « الوزىّ » وهو ضرب من الحمام يَضْرِبُ إلى حُمرة وصُفْرة .

كنية الحمام :

وفى الزنبيل : « لابن خالَويه » كنية الحمام :

«أبو مهنى»

المعرقل :

والمعرقل : الذكر من الحَمام .



المقْصِــدُ

وفيه مسائل :

الأولى : فيما جاء من الأحاديث فى اتخاذه .

الثانية : فى حكم حبسه فى الأقفاص .

الثالثه : فى حكم اللعب به بالتطيير والمسابقة .

الرابعة : فى حمامَتَيِ الغار ومعانى تسبيح بعض الطيور .

المقصـــد
وفيه مســـائل

الأولى : ... فى الحديث الذى جاء السؤال عنه ، وطرقه ، وشواهده .

قال **الطبرانى** فى الكبير :

حدثنا الحسين بن إسحق القيسرىّ ، حدثنا الربيع الزهرانى ، حدثنا الصّلت بن الحجاج ، أنبأنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان ، عن عُبادة بن الصامت[٣٤] قال :

شكا رجلٌ إلى رسول الله ﷺ الوحشة ، فقال له رسول الله ﷺ : «**اتّخِذْ زوجاً من حمام**» .

[رجالُه رجال الصحيح سوى الصَّلت ــ قال فيه ابن عدى : فى حديثه بعض النكرة] .

وقال ابن السنى : «**فى عمل اليوم والليلة**» حدثنا على بن إسحق بن رجا أنبأنا محمد بن يزيد المستحلى حدثنا الحسين بن علوان عن ثور ابن يزيد عن خالد بن معدان ، عن مُعاذ بن جبل : «**أن عليًّا شكا**

(٣٤) أحد الصحابة الانصار واحد النقباء الاثنى عشر الممثلين للأنصار وقد حمل لواء الفتح الإسلامى مع عمرو بن العاص عند فتح مصر .. وقام بالتفاوض مع المقوقس وعقد الصلح ، وعقد له عمرو بن العاص اللواء لقيادة الجيش الذى فتح الإسكندرية عنوة وتم فتحها على يديه بنصرٍ من الله .

إلى النبى ﷺ الوحشة فأمره أن يتخذ زوج حمام ويذكر الله عند هديره »[٣٥] .

[سنده ضعيف] ، وقال ابن وكيع فى الفرد : حدثنا الحسين بن أبى زيد الدباغ ، حدثنا يحيى بن ميمون بن عطا أبو أيوب حدثنا أبو ميمون بن عطا عن أبى إسحق عن الحارث ، عن على بن أبى طالب : أنه شكا إلى رسول الله ﷺ الوحشة ، فقال : « **ألا اتخذت زوجاً من حمام فآنسك وأكلت** » ؟!

[أخرجه بن عدى فى الكامل ، ويحيى بن ميمون ، والحارث وضَعَّفاه] .

وقال الخطيب[٣٦] فى تاريخه : أخبرنى الحسين بن على الطناجيرى أنبأنا عمر بن أحمد الواعظ ، حدثنا أحمد بن هاشم بن محمد العبدى ، حدثنا محمد بن زياد اليشكرى ، عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : « **شكا رجل إلى رسول الله ﷺ الوحشة فقال** : « **اتخذ زوج حمام يؤنسك بالليل** » [محمد بن زياد ضعيف] .

---

(٣٥) هدر الحمام قرقر وكرر صوته فى حنجرته . وهدلَ هديلا صَوَّت . [المنجد] .

(٣٦) الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد .

وهو الشيخ الإمام أبو بكر أحمد بن على بن ثابت المعروف بـ « **الخطيب البغدادى** » صاحب المؤلفات الكثيرة أشهرها « **تاريخ بغداد** » روى عنه جماعة من الحفاظ منهم شيخه أبو بكر أحمد بن محمد البرقانى شيخ بغداد .

قال ابن ماكولا :

« كان أبو بكر الخطيب آخر الأعيان مما شاهدناه معرفة وحفظا وإتقانا وضبطا لحديث رسول الله ﷺ وتفننا فى علله وأسانيده وعلما بصحيحه وغريبه ، وفرده ، ومنكره ومطروحه .

ومن شواهد ذلك : ماأخرجه ابن عدى بسند فيه مضعفا عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا كان أحدكم فى بيته وحده خاليا فلْيتخذ فيه زوجَ حمامٍ**» .

وما أخرجه ابن عدى والشيرازى فى «**الألقاب**» والخطيب بسند ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «**اتخذوا الحمام المقاصيص فى بيوتكم ؛ فإنها تُلهى الجنَّ عن صبيانكم**» .

وماأخرجه الطبرانى ، وابن قانع ، وابن السنى ، وأبو نُعيم ، كلاهما فى «**الطب النبوى**» بسند ضعيف عن حبيب بن عبد الله بن أبى كبشة عن أبيه عن جده «**أن النبى ﷺ كان يعجبه النظر إلى الأُتْرُجّ ، ويعجبه النظر إلى الحمام الأحمر**»(٣٧) .

وأخرج الحاكم فى التاريخ ، وأبو نعيم فى الطب **بسند ضعيف** ، عن عائشة قالت : «**كان النبى ﷺ يحب النظر إلى الخضرة وإلى الاترج وإلى الحمام الأحمر**» .

وأخرج ابن حبان فى الضعفاء وابن اسحق وأبو نعيم معا فى الطب عن على بن أبى طالب قال : «**كان رسول الله ﷺ يعجبه النظر إلى الحمام الأحمر والأترج**» .

ثم قال : ولم يكن للبغداديين بعد الدارقطنى مثله »
صنف فى الفقه وبرع فيه ، ثم غلب عليه الحديث . اهـ [اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادى ــ تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ــ المكتب الإسلامى] .

(٣٧) قال فى المنجد : « الأُتْرج ، والأُتْرُنج ثمر تسميه العامة : «**الكباد**» وهو من جنس الليمون ، ويقال له أيضا التُّرُنْج »
وشجره من الفصيلة البرتقالية ناعم الأغصان والورق والثمر كالليمون الكبار ، ذهبى اللون ، ذكى الرائحة ، حامض الماء ، ويسمى عند العرب «**تفاح العجم**» و«**ليمون اليهود**» ؛ لأنهم يحملونه فى الأعياد . [التداوى بالأعشاب . عبد اللطيف عاشور] .

قال هلال بن المعلَّى : الحمام الأحمر : التفاح .
قال الحافظ أبو موسى المدينى : هذا التفسير لم أره لغيره !

وقال الديلمى فى مسند الفردوس : أنبأنا يحيى بن عبد الوهاب الحافظ ، أنبأنا أبو عمرو ورجا بن على بن عبد الصمد حدثنا عمر بن أحمد بن عمر الشافعى حدثنا أحمد بن الحسن بن أيوب النقاش ، حدثنا ابراهيم بن مهدى ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سعيد بن محمد ابن سعيد بن زياد ، حدثنا عبد الله بن الزبير وعبد الله بن معاوية قالا : حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسولُ الله ﷺ : « **إن لله من كل شيء صفوةً ، وإن صفوته من الطيرِ الحمام فلا تحسبوها** » .



المسألة الثانية
فى حَبْسِه فى الأَقفاص

قال الدُّمَيْرىّ :[٣٨] يجوز اتخاذُ الحمامِ للبيض والفراخ والأنس بها وتحمُّل الكتب بلا كراهة .

قال : ويجوز حبس الطير فى القفص . نصَّ عليه أصحابنا أبو العباس بن القاص فى شرح حديث :

«ياأبا عُمَيْر ، مافعل النُّغير[٣٩] ؟!»

وسئل القفّالُ عنه فقال :

إذا كفاها المئونة جاز .

ومنع ابن عقيل الحنبلى من ذلك وجعله سفهاً وتعذيباً ؛ لقول أبى الدرداء :

---

(٣٨) توفى سنة ٨٠٨ هجرية .

(٣٩) قال فى القاموس : النُّغَر كصُرَد : البلبل وفراخ العصافير جمعها نِغْران ، وبتصغيرها جاء الحديث : ياأبا عمير مافعل النُّغير ؟!

وجاء فى المواهب اللدنية أن الحديث رواه أنس قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقاً وكان لى أخٌ يقالُ له : أبو عُمَيْر وكان له «نُغر» يلعب به فمات فدخل على النبى ﷺ ذات يوم فرآه حزينا ؛ فقال : ماشأنه ؟ قالوا مات نُغَرُه ، فقال : ياأبا عمير ، مافعل النُّغير ؟ [رواه البخارى ومسلم] .

والنغير تصغير نغر . طائر صغير كالعصفور .

[من الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية]

«تجىء العصافيرُ يوم القيامة تتعلق بالعبد الذى يحبسها فى القفص عن طلب أرزاقها ، تقول : يارب ، هذا عذبنى فى الدنيا» .

والجواب : أن هذا فيمن منعها المأكول ، والشراب .

قلت : قد عقد البخاريُّ لذلك باباً فى كتاب «**الأدب المفرد**» فقال : «**باب الطير فى القفص**» .

حدثنا حازم ، حدثنا حماد بن زيد عن هشام بن عروة[٤٠] قال : كان أبى الزبير بمكة ، وأصحاب النبى ﷺ يحملون الطير فى الأقفاص .

وأورد إيضا حديث «**يا أَبا عُمَيْر ما فعل النُّغير**» ؟!

وفى الخادم **للزركشى** : فى «**باب البيع**» عند قول الرافعى : ومنه ماينتفع بلونه ، **كالطاووس** ، أو صوته **كالزرزور** ،[٤١] مانصه علم منه جواز حبس الطيور لقصد ذلك .

وبه صَرَّح **القفَّالُ** فى فتاويه وبه قال ؛ لأن فى ذلك تعهده ، ولاتمييز له ، فهو كالحمار يُرْبط .

وذكره **ابن القاص** فى كلامه على حديث «**ياأبا عمير مافعل النغير**» ؟! ويشهد مافى كتاب **ابن السنى** «**أن عليا شكا إلى النبى ﷺ الوحشة ، فأمره أن يتخذ زوج حمام ، ويشكر الله عند هديرها**» . وكذلك قصة **الشافعى** مع **مالك** فى الرجل الذى اشترى **القُمْرِىَّ** ووجده لايصيح كثيراً .

---

(٤٠) عروة بن الزبير .

(٤١) الزرزور : طائر أكبر من العصفور منه نوع لونه أسود منقط ببياض جمعه زرازير وزرازر . [المنجد] .

نعم .. هذا ظاهر فى الطيور المأكولة ، أما غير المأكولة ففيه توقف ؛ فقد ذكر العبادى فى الطبقات ، أن النهى عن قتل الهدهدِ والصُّرَدِ ،[٤٢] والخطَّافِ ،[٤٣] ؛ لكرامتها .

وإذا كان كذلك فمن كرامته ألا يُتَعَرَّضَ له ألْبَتَّةَ بحَبْسٍ ، ولاغيره ؛ لأن الحبسَ عقوبة ؛ ولأنه يحرم قتله ، فيحرم حبسه قياساً على الصيد فى حق المحرم .

لكن قوله ﷺ فى صاحبة الهرّة التى رآها فى النار : « **حبستها فلا هى أطعمتها ، ولاهى تركتها تأكل من خشاش الأرض ــ دليل على أن : من حبس الهرة ومافى معناها ، وأطعمها ، لايعاقب على ذلك .**



---

(٤٢) الصُّرد : جاء فى معجم الحيوان هو طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار شرس الطباع ، يصيد العصافير وصغار الحيوانات وهو أنواع كثيرة .

(٤٣) الخطاف : طائر طويل الجناحين ، قصير الرجلين ، أسود اللون . [المنجد]

المسألة الثالثة
فى اللعب بها

اللعب بالحمام والتطير والمسابقة :

قيل : **يجوز** ؛ لأنه يحتاج إليها فى الحرب لنقل الأخبار .

والأصح : كراهته ؛[44] لما رواه أبو داود ، وابن ماجة ، وابن حِبَّان ، والطبرانى ، والبيهقىّ ، **عن أبى هريرة : أن النبى ﷺ رأى رجلا يتبع حمامة ، فقال** : «**شيطان يتبع شيطانة**» .

قال البيهقى : حمله بعض أهل العلم على إدمان صاحب الحمام لإطارته ، والاشتغال به ، والارتقاء بسببه إلى الأسطحة التى يشرف منها على بيوت الجيران ، وحُرَمِهم .

وقال **ابن حبان** : إنما قال له : شيطان ؛ لأن اللاعب بالحمام

---

(44) جاء فى كتاب المنهيات للحكيم الترمذى «**واما قوله : ونهى عن اللعب بالحمام**» ؛ فإن ذلك خصلة من خصال قوم لوط ، وهى فعل يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وإذا لعب به اصطاد حراما وأضاع صلاته ، ودعاه ذلك إلى الفتنة والإشراف على الجيران . أبو داود كتاب الأدب باب ٦٥ ، وحديث ٤٩٤٠ . وابن ماجة : كتاب الأدب . باب ٤٤ حديث ٣٧٦٥ ، وأحمد : الجزء الثانى ص ٣٤٥ .

وروى فى الخبر أن «**من لعب بالحمام افتقر**» وكيف لايفتقر وقد قسا قلبه ؟

قال السخاوى : «**حديث اللعب بالحمام مَجْلبة للفقر**» هو بمعناه عن إبراهيم النخعى رواه ابن أبى الدنيا فى الملاهى ، ومن طريقه البيهقى فى الشعب من جهة مُغَبَّرة عنه أنه قال : «**من لعب بالحمام الطيارة لم يمت حتى يذوق ألم الفقر**» المقاصد الحسنة حديث ٨٥٧ .

لايكاد يخلو من لهو وعصيان !! والعاصى يقال له : **شيطان !!**

قال تعالى : ﴿**شياطين الإنس والجن**﴾ [الأنعام : ١١٢] صدق الله العظيم ، وأطلق على الحمامة شيطانة للمجاورة .

وروى **ابن أبى الدنيا** فى **ذم الملاهى** ، **والبيهقى** عن سفيان الثورى قال : سمعنا أن اللعبَ بالحمام من عمل قوم لوط .

وعن **النخعى** قال : **من لعب بالحمام الطيارة ، لم يمت حتى يذوقَ ألم الفقر** .

وعن أيوب قال : كان ملاعب **آل فرفون** الحمام . **وعن أسامة بن زيد** قال : شهدتُ **عمر بن عبد العزيز** يأمر بالحمام الطيارة فتذبحن ، ويترك المقصصات !

وروى فى تاريخه عن زهير أن **المهدىَّ** كان يحب الحمام فروى له غياث بن إبراهيم حديثَ «**لاسبقَ إلا فى خفٍّ أو حافرٍ أو نصلٍ**»(٤٥) فزاد فيه : «**أو جناح**» .

فلما قام قال **المهدى** : أشهد أن قفاه قفا كذاب ، وأنا استجلبت ذلك ، وأمر بالحمام فذبحت .

وروى الخطيب عن زكريا الساجى قال : بلغنى أن أبا البحترى دخل على الرشيد وهو قاض ، وهارون إذْ ذاك يطير الحمام ، فقال : هل تحفظ فى هذا شيئاً ؟!

---

(٤٥) ابن حِبّ رسول الله ﷺ . وأحد القادة من الشباب الذين عقد لهم الرسول ﷺ اللواء لقيادة الجيش خارج الجزيرة العربية ، ولما لقى الرسول ﷺ ربه قبل أن يتحرك الجيش نفذ أبو بكر ماعقده الرسول ، وراح يودعه وأسامة يقول له : لتركبن أو لأنزلن فيقول : لانزلتَ ، ولاركبت وماعلىّ أن أغبر قدمىَّ ساعة فى سبيل الله !!

فقال : حدثنى هشام بن عُروة ، عن ابيه ، عن عائشةَ «**أن النبى ﷺ كان يطير الحمام**» .

فقال هارون : اخرج عنى .. !! ثم قال : لولا أنه من قريش لعزلته !![٤٦]



(٤٦) ولاشك أن الاشتغال بتطييره ملهاةٌ ومَشْغَلةٌ ، إلى جانب مايستتبعه من حزن حين يغلبه حمام غيره .

ومن طريف مايروى أن أحد الولاة كان يحب اللعب بالحمام ، وكان لخادم له حمام يلعب به أيضا ، وتسابقا ذات يوم ، فسبق حمامُ خادمه حمامَةَ !!

وعندما بعث الأمير إلى وزيره يستعلم الحال ليعرف حمام من الذى سبق ؟ حار الوزير فى أمره .. ولم يدر ماذا يقول له ؟!

أيقول له : إنك قد سُبقت ؟ وممن ؟ من خادمك ! ولم يخرجه من حَيْرتِه إلا أحد الشعراء .. الذى أرشده إلى أن يُكنِّى عن تلك الحال بعبارة رمزية لطيفة .. فقال له : إن رأيت أن تكتب إليه وتقول :

يأيُّها المولى الذى جَدُّه لِكُلِّ جَدٍّ قاهرٌ غالبْ
طائرُك السابقُ لكِنَّه أتى وفى خِدْمتِه صاحبْ

[الجد : الحظ]

فاستحسن الوزيرُ منه هذه الكناية اللطيفة ، **أتى وفى خدمته صاحب** ، وأمر له بجائزة . وكتب للأمير بذلك ، فأسعدته تلك الإجابة ، وأنسته ماحل بنفسه من هزيمة حمامه !!

المسألة الرابعة

فى حمامتى الغار ، ومعانى تسبيح بعض الطير

روى **ابن سعد** فى الطبقات ، **وأبو نُعَيْم** ، **والبيهقىّ** فى الدلائل عن أبى مُصْعَبٍ المَكىّ قال : أدركت أنس بن مالك ، وزيدَ بن أرقم ، والمغيرةَ بن شعبة يتحدثون : أن النبى ﷺ ليلة الغار .. أمر الله بشجرة(٤٧) فنبتت فى وجه النبى ﷺ ، وأمر الله العنكبوت فنسجت فى وجه النبى ﷺ فسترته ، وأمر الله حمامتين وحشيتين ، فوقفتا بفم الغار ، وأقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيِّهم ، وهراواتهم ،(٤٨) وسيوفهم ، حتى إذا كانوا من النبى ﷺ بقدر أربعين ذراعا ، جعل رجل منهم ينظر فى الغار ، فرأى **حمامتين** بفم الغار ،(٤٩) فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت حمامتين بفم الغار ، فعلمت أنه ليس فيه أحد ،(٥٠) فسمع النبى ﷺ ماقال ، فعرف أن الله قد دَرَأ بهما عنه ،

---

(٤٧) شجرة أم غيْلان .

(٤٨) الهراوة : العصا الضخمة .

(٤٩) وحمام الحرم من نسل تَيْنِكَ الحمامتين ، وسبحان الله الذى صرفهم عنه بما أكرم به رسوله من عجائب ومعجزات ، حمامات تبيض ، وشجرة تمتد فروعها وأغصانها ، وعناكب تتشابك خيوطها ويتكاثف نسيجها ، كل ذلك يجدونه فى مدخل الغار أعلاه وأسفله ــ حتى لِيحلف أحدهم ــ وهم يتآمرون عند ذلك الغار ــ أن نسْجَ ذلك لأقدم من ميلاد محمد !!

(٥٠) وممن عميت أبصارهم وبصائرهم : أمية بن خلف الذى قال : إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد .

فدعاهن النبى ﷺ ، وشمت عليهن ، وفرض جزأهن ، وانحدرن فى الحرم ، فأفرخ ذلك الزوجُ كلَّ شىءٍ فى الحرم !!

وإلى ذلك أشار صاحب البردة بقوله :

ظَنُّوا الحمام وظنوا العنكبوتَ على

خير البرية لم تَنْسُجْ ولم تَحُمِ

وروى ابن وهب : أن حمام مكة أظلت النبى ﷺ يوم فتحها فدعا لها بالبركة .

وذكر **الثعلبى** عن وهب بن مُنَبِّه فى قوله تعالى : ﴿**وربك يخلق ما يشاء ويختار**﴾ [القصص / ٦٨] .

قال : اختار من النعم[٥١] **الضأن** ، ومن الطير **الحمام** .



■وفى الصحيح عن أنس قال : قال أبو بكر ، يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا ، فقال له رسول الله ﷺ : **ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟!!**

(٥١) النَّعمُ : الإبل والشاء والجميع أنعام ، والضأن خلاف الماعز من الغنم .

معانى تسبيح بعض الطيور

وفى تفسير الثعلبى وغيره عن سليمان بن داود عليهما السلام : أن **الحمام** يقول :

« سُبحانَ ربى الأعلى »

والفاختة تقول :

« ليت هذا الخلق ماخُلِقُوا !! »

والصُّرَد يقول :

« استغفروا الله يامُذْنبون !! »

وطيطوى[٥٢] تقول :

« كلٌّ حيٍّ ميت ، وكل جديدٍ بالٍ »

(٥٢) طيطوى : طائر صغير من طيور الماء طويل المنقار والساقين شبيه بالشُّنْقُب إلا أنه أصغر ، وهو من الطيور القواطع وأنواعه كثيرة (طيطوى أحمر الساق ــ أدكن ــ أخضر الساق ــ عصفور سلطانى فى دمياط) . (حلمى السماع) طيطوى أخضر . نسناسة فى دمياط (حلمى السماع) . طيطوى البطائح ــ طيطوى الغياض ــ طيطوى منجلى ــ طيطوى أصيفر الصدر . جاء فى المقتطف ٣٧ : ٩٨٥ لمؤلف معجم الحيوان : طائر صغير من طيور الماء سماه أحمد فارس زمار الرمل وهو ترجمة اسمه الانكليزى . والطيطوى فى الفيروز ابادى « ضرب من القطا أو غيره » . وفى محيط المحيط ضرب من القطا وغيره . وقيل هو طائر لايفارق الآجام وكثرة المياه » وفى حياة الحيوان : باب الطيطوى مانصه : « قال أرسطاطاليس فى كتاب النعوت إنه طائر لايفارق الآجام وكثرة المياه لأن هذا الطائر لايأكل شيئا من النبت ولا من اللحوم ، وإنما قُوتُه مما يتولد فى شاطىء الغياض والآجام من دود النتن ، وهذا الطائر تطلبه البُزاة عند مرضها الخ » ويقول معجم الحيوان تعليقا على هذا : ولم أجد فى كتاب النعوت شيئا من هذا لكن ورد فيه ذكر طائرين لايفارقان الآجام .

والخطافة(٥٣) تقول :

« قدّموا الخيرَ تجدوه !! »

والبازى(٥٤) يقول :

« سبحانَ ربى وبِحَمْدِه !! »

والسرطان يقول :

« سُبحانَ ربىَ المذكور بكلِّ لسان !! »

والدُّرَّاجُ(٥٥) يقول :

« الرحمن على العرش استوى !! »

وإذا صاحت **العُقابُ** قالت(٥٦) :

« البُعْدُ من الناس راحة !! »

وإذا صاح **الخطاف**(٥٧) :

« قرأ الفاتحة إلى آخرها » ويَمُدُّ صوتَه بقوله :

﴿ولا الضَّالِّين﴾ كما يَمُدُّها القارىء !!

وأخرج **أبو الشيخ** بن حيان فى كتاب **العظمة** عن عمرو بن قيس الملائى قال : مَرّ سليمان بن داود عليهما السلام على حمام يهدر على

(٥٣) طائر يشبه السنونو طويل الجناحين قصير الرجلين . والسُّنونو طائر من الخطاطيف عاري الساقين والرجلين طويل الجناحين مشقوق الذنب ومن أسمائه عصفور الجنة .

(٥٤) البازى ضرب من الصقور .

(٥٥) مثل رُمّان نطقا طائر .

(٥٦) طائر من الجوارح يطلق على الذكر والأنثى قوى المخالب وله منقار أعقف جمعه عِقبان . المنجد .

(٥٧) قال القزوينى فى عجائب المخلوقات : الخطاف طائر مُتنقل يتبع الربيع حتى إذا أقبل الصيف أخذ فراخه ومشى بها إلى الوكر الذى تركه فى البلد الآخر ، ولايبقى منها واحد إلا رجع إلى وكره القديم .

أنثاه ، فقال لأصحابه :

تدرون مايقول هذا الحمام لأنثاه ؟!

قالوا : لا ، يا نبى الله !!

قال : يقول لأنثاه : **تابعينى على ماأريد منك ؛ فو الله لمُتَابَعَتُك أَحَبُّ إلىَّ مِنْ مُلْكِ سُلَيْمان !!**[٥٨]



(٥٨) طبعاً كلٌّ يغنى . على ليلاه !!

الخاتمة

ماقيل فى وصف الحمام

○ قال عبد الواحد بن فتوح الفروات فى وصف الحمام :

يجتابُ(٥٩) أرديةَ السحابِ بخافقٍ ... كالبرق أومض فى السحاب فأبرقا .

لوسابق الريح الجنوب لغاية ... يوما لجاء بمثلها أو أسبقا(٦٠)

يستقربُ الأرضَ البسيطة ذاهباً ... والأفقَ ذا السقفِ الرَّفيع مرتقَى(٦١)

ويَظَلُّ مسترقُ السَّماعِ يخافُه ... فى الجوِّ تحسَبُه الشهابَ(٦٢) المحرقا

قِسْهُ بأَعْتَقِ كلِّ حاملِ ريشةٍ ... مِمّا يَطيرُ تجده منه أعْتقَا(٦٣)

يَبْدُو فيُعْجِبُ من يَراهُ لحُسْنِه(٦٤) ... وتكادُ آيةُ عِتْقِه أن تَنْطِقا

مُتَرقرقاً(٦٥) من حيث دُرْت كأنَّما ... لبس الزجاجة أو تجلبَبَ زَيِّقا

---

(٥٩) اجتاب البلاد قطعها . والحمام يقطع الآفاق مجتازاً طبقات السحب بجناحيه تلمع بين السحب كأنها البرق .

(٦٠) وهو فى البيت الثانى يسابق الريح ويكاد يسبقها .

(٦١) إن الأرض الواسعة لاتبعد عليه ذهابا فهو يستقربها متخذا من الأفق العالى مرتقى يرقاه .

(٦٢) إن الشياطين التى كانت تسترق السمع من السموات العُلا تخافه فى الجو تحسبه شهابا حارقا .

(٦٣) وهو بالنسبة للطيور ذات الريش أعتقها وأكرمها .

(٦٤) إن حسنه باد للعين حتى كاد أن يتكلم معبرا عن أصالته و كرمه .

(٦٥) من أى النواحى نظرت إليه تلمس بريق جماله كالبلور أو لبس جلبابا لامعا كالماء الرقراق .

○ وقال عبد الواحد بن خلف القطاس :

ألَا لَا تهيجنّ الحمام فتَنْدُبُها — قديما بأكبـــاد المحبين سادِك[٦٦]

توسَّدْن مَطْوِيَّ الجناح كأنما — لهن حشايا فوقه وودائك[٦٧]

ومِلْنَ على خُضرِ الغصُون كأنما — لهن على قُضُبِ الأراكِ أرائك[٦٨]

ولا شذى إلا تضوع شجونا — ولاشجوا إلامن دموعى سافك[٦٩]

○ قال مسعود بن عبد الله التيتارى :

رأى المسترشد فى النوم ، فى الاسبوع الذى استشهد فيه ، كأن على يده حمامة مطوقة ، فأتاه آتٍ وقال :

خلاصُك فى هذا !!

فلما أصبح حكى لابن سُكَيْنَة الإمام مارآه فقال :

ماأوَّلْته ياأمير المؤمنين ؟!

قال : أوّلْتُه ببيت أبى تمم :

هن الحَمام فإن كسَرْت عيافةً — من حائِهن فإنهن حِمام[٧٠]

وخلاصى فى حِمامى فقتل بعد أيام .

---

(٦٦) سادك به لزمه ، والشاعر يطلب منا أن نتوقف عن إثارة الحمام فكم ترك ندبها فى قلوب المحبين وأكبادهم حزناً ملازماً !!

(٦٧) تراهن متخذات من أجنحتهن وسائد وحشايا . والودك : الدسم .

(٦٨) قضب الأراك : القضيب جمع قضيب وهو العود والغصن ، والأراك شجر يتخذ منه السواك . وكأنما أصبحت تلك الأعواد والغصُون الخضراء أرائك لهن .

(٦٩) الشجو الهم والحزن . وتضوع فاح . والشذى الرائحة الطيبة .

(٧٠) العيافة زجر الطير والتشاؤم أو التفاؤل بطيرانها . والعائف المتكهن بالطير أو غيرها .

وشتان بين فتح الحاء وكسرها ؛ فبالفتح تطلق على الطائر المعروف ، وبالكسر حمام . الموت .

○ وقال حسين التونسى الملقب عنترة ، يصف الحمام :

وأصغر من بنات بنى الحسام أقل فعاله فوق الكلام

له حلل من الذهب المصفى وعين كالعقيق من المدام

ويعجز عن مداهُ الريح سبقا ويكبُو خلْقه برْق الغمامِ(٧١)

○ أورد القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى :

فى كتاب الوساطة قول الفرزدق :

همُ فادُوا سفيَهَهُمُ وخافوا قلائدَ مثلَ أطواقِ الحَمام

○ وقال ابن هرمة :

عَقَدتْ من مُلْتقى أوداجِ لَبَّته طوق الحمامة لاتبلى على القدم(٧٢)

○ وقال بعضهم :

وهن إذا رسمت بهن قوما كأطواقِ الحمامة فى الرقابِ(٧٣)

○ وقولُ أبى الطيب :

أقامت فى الرقاب له أيادٍ هى الأطواقُ والناس الحَمامُ

ثم قال : وهذا من التبذل الذى لايُعَدُّ سرقة ، وزيادة أبى الطيب فيه حسنة بديعة !

○ وقال ابن عبد الظاهر :

نَسَبَ الناسُ للحمامةِ حُزْناً وأراها فى الحزنِ ليْسَتْ هُنالِكْ(٧٤)

خضَّبَتْ كَفَّها وطَوّقَتِ الجيدَ وغَنَّت ، وماالحزينُ كذلكْ

(٧١) يكبو : يتعثر . يسابق الغمام والبرق ، والريح .

(٧٢) الأوداج جمع ودج ، وهما ودجان . وملتقى الأوداج والعروق الرقة . واللَّبة : موضع القلادة من الصدر .

(٧٣) كناية عن الملازمة .

(٧٤) يقال ليس هنالك . أى ليست بالحزينة ، والبيت الثانى دليله على ذلك ، وكيف=

وقال ابن صاحب تكريت :

تَحَمَّلتَ يابرقُ اشتياق إلى الحِمَى فأنت كقلبى من غَرامِىَ يَخْفِقُ[٧٥]

وماأنتِ ياورقاءُ مِثْلِى حزينةٌ ولوكُنْتِ ماكان الجناح يُصَفّق

وقال أبو حاتم فى «**كتاب الطير**» :

ومما جاء فى حمام الوحش من أشعار الفصحاء :

قال شقيق بن بعلبك الأسدى :

لقد هَيَّجَتْ مِنِّى حَمامةُ أيْكَةٍ من الوجْدِ وجداً كنت أكتُمه جُهدِى[٧٦]

فقلْتُ تَعالَىْ نَبْكِ من ذكر ماخلا ونَذْكر منه مانُسِرُّ ومانُبْدِى

تُسْعِدينى تدرّ عبرتُنا معــاً وإلّا فإنّى سَوْف أسفحُها وحدى

وقال الوقّاف ورد بن الجعد :

أحقّـا ياحمامــةَ بَطْــنِ وادٍ بأنك فى بُكـائِكِ تَصْدُقينَـا[٧٧]

غلَبْتُكِ فى البُكاء بأنّ لَيْلِى أواصِلُــه وأنَّك تَهْجَعينـــا

وأنى إن بكيت بكيت حقًّا وأنك فى بكـائك تكذبينــا

تكون حزينة من خضبت كفها ، وتحلت بالزينة طوقاً لها ، وراحت تغنى .. إن ذا لعجيب !!

(٧٥) إنه يناجى البرق ويخاطبه فلقد رآه يشاركه مشاعره وعواطفه وأحاسيسه فأصبح كلاهما مشتاقا إلى الحمى مغرماً به . وفى البيت حسن تعليل جميل ، فقد علل خفقان البرق بما يعانيه من حب وغرام .

أما الحمامة فلم يرها تشاركه أحزانه ، فإن من يصفق بجناحيه لاأثر للحب لديه !!

(٧٦) إنها قصة .. قصة حمامة هيجت ماحاول كتمانه من الوجد ، فدعاها ليتباكيا معا على ذكريات سلفت ، وليتبادلا أحاديث الحب والهيام ماخفى منها ومابدا . ثم يطلب منها أن تساعده على البكاء فيبكيا معا ، وإلا فإنه سيبكى وحيداً .

(٧٧) وهنا يجد الشاعر نفسه أصدق فى بكاء المحبوب من الحمامة .. إنه يواصل الليل بالنهار فى البكاء .. أما هى فتهجع !! وهو يبكى حقا وصدقا أما هى فإنها كاذبة !!

وقال حكم الخضرى :

فقل لحمامةِ الخرجاء سُقْياً لصوتك حين أعجبك المقيل![78]

بكت أحزانها فبكيتُ شَجْوِى ولم ننطقْ فأفهمَ ماتقول !

وقال رجل من بنى نهشل :

ألام على فيض الدموع وإننى بفيضِ الدموعِ الجارياتِ جديرُ

أيبكى حمامُ الأيْكِ من فَقْدِ إلْفِه وأصبرُ عنها ؟! إننى لصبورُ ؟![79]

وقال على بن عُمَيْرة الجرمى :

هَتُوفُ الضُّحى معروفَةُ اللَّحنِ لم تَزَلْ

تَقُودُ الهَوىَ مُهْدًّى لها ويقودُها

جَزُوعٌ، جَمُودُ الْعَيْنِ، دائمةُ البُكا

وكيف بُكَا ذى مُقْلَةٍ وجمودُها[80]

مُطَوَّقَةٌ لم يَضْرِبِ الحزن فضةً

عليها ولم يُعَطِّل من الطّوقِ جيدُها

---

(٧٨) الخرج : موضع باليمامة . إنه يدعو لصوتها الذى لم يعد يسمعه «بالسُّقيا» ليعود بعد انقطاع .. وربما أعجبها وقت القيلولة فراحت تركن للظل وتتوقف عن البكاء ! وهى التى بكت أحزانها فشاركها وراح يبكى أحزانه وإن كان لم يفهم ماتقول !!

(٧٩) وهذا النهشلى يعاتب نفسه ويؤنبها على صبرها عن فقد إلفها بينما يبكى حمام الأيك إلفه !!

(٨٠) جزوع : كثيرة الجزع والحزن . وجمود العين : كناية عن شدة الحزن . فعندما يشتد الحزن نضن العين بدموعها ولذا رأينا الخنساء عندما فقدت أخاها صخرا تبكيه قائلة : أعَيْنَىَّ جُودَا ولاتجمدا .. ومصدر العجب البكاء بغير دموع !!

ويزول العجب إذا علمنا أنها .. المطوقة التى لم تبد عليها آثار الحزن ولم تتخل عن زينتها ممثلة فى طوقها !

وقال إدريس بن اليمان العبدرى :

وزْقًا مطوقةُ السوالفِ سُنْدُساً

لم تَحْكِ صنعتَها حياكةُ حَاك[٨١]

وكأن أرجلها القوانى أُلْبِسَتْ

نعلاً من المَرْجَانِ دُونَ شِراك

تَشْدُو على خُضْر الغصون بأَلْسُنٍ

صُبِغَتْ ملاثِمُها بلا مِسْواك[٨٢]

وكأنما كُحِّلَت بنارِ جَوَانحى

فترى بأعينها لهيبَ حشاك[٨٣]



(٨١) السوالف جمع سالفة وهى صفحة العنق عند معلق القرط . والسندس . نسيج الديباج أو الحرير . وحاك الثوب : نسجه فهو حائك . والشراك : سير النعل على ظهر القدم . والقوانى : جمع قانية .. ويقال أحمر قان . أى شديد الحمرة .

(٨٢) الملاثم : جمع ملثم وهو الفم الذى يلثم ويقبل موضع اللثم والقبل . والمقصود أن مناقيرها ذات ألوان طبيعيه ، لم تمتد إليها يد بالتجميل .

(٨٣) الحشى : مادون الحجاب مما فى البطن من كبد وطحال وكرش . وإذا كانوا يقولون : لايعرف الشَّوْقَ إلا من يُكابده ولا الصبابة إلا مَن يعانِها .
فإن تلك الحمامة وقد كحلت بنار الشوق فأدمت عيونها ــ تستطيع أن ترى لهيبَ الشوق فى الأكباد والقلوب !

إشارة الحمام

وقال صاحبُ كشف الأسرار فى إشارة الحمام :

.. فبينا أنا مستغرق فى لذة كلامه ، معتبر بحكمه وأحكامه ، إذ رأيت أمامه حمامة ، قد جعل طوق العبودية فى عنقها علامة ، فقلت لها :

حدثينى عن شوقِك وذوقِك ، وأَظْهرى لى حكمةَ تَطْويقِ طَوْقِك ؟!

فقالت : أنا المطوَّقَةُ بطوْقِ الأمانة ، المتَقَلِّدةُ تقليدَ الصِّيانة ، فأنا لحملِ الأمانةِ نُدِبْتُ ، وإذا رأيتُ أهلَ الخيانةِ نَدِمْتُ !!

أحملُ الرسائلَ ، وأبْلُغُ الوسائل ، وأجيب عن المسائل لكنى أخبرك عن خبرى لتعلمَ صحة مخبرى ![84]

أعلمك بالقصةِ الصحيحة ؛ فإن الدينَ النصيحة ،[85] ، فما كلُّ طائر أمين ، ولا كل حالِفٍ يصدق فى اليمين !

---

(٨٤) حقيقة أمرى .

(٨٥) إشارة إلى الحديث الشريف «**الدين النصيحة**» . انظر صحيح مسلم ٨ /٢١٠ ، والترمذى ٣ /٢٦٢ ، والمسند ٢ /٣٢٣ ، وابن ماجه ٢ /١٣٧٨ ، والزهد لأحمد ٢٨ ، والمقاصد ٢١٧ ، والدرر ٢٢٣ ، والتمييز ٧٨ ، والكشف ١ /٤١٠ ، والحلية ٨ /١٨٥ ، والأسرار ٣٦٦ اهـ مختصر المقاصد الحسنة ، وجاء فى نظم المتناثر من الحديث المتواتر لأبى عبد الله الكتانى : قال أبو الطيب القنوجى فى تأليف له سماه العبرة مانصه : ويجب بذل النصيحة للأئمة لما ثبت فى الصحيح من حديث تميم الدارى أن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين .

والأحاديث الواردة فى مطلق النصيحة متواترة ، وأحق الناس بها الأئمة ـــ والله أعلم .

أمّا المخصوص بحفظ الأمانة من جنسى ، وماأُبرِّىءُ نفسى ! فيحملُ الأمانةَ مِنّا مَنْ **كان أبلقَ وأخضرَ** ؛[٨٦] لأنه أحسنُ فى الشكلِ والمنظر ، وأعدلُ فى الخبر والمخبر ؛ فإن الطائرَ إذا **كان أسودَ** دلَّ على تجاوزِ حَدِّ النُّصْح ، فتكون الطبيعة قد جاوزت حَدَّها ..

فإذا **كان أبيض** دل على قصور الطبيعة عن حدِّ النُّصْح ، فيدُلُّ على انحراف المِزاج عن حدِّ الاعتدال ، ولاتكون الهمةُ العالية إلا فى الرُّوح الزكية ، ولاشرفُ العزيمة إلا فى النفس النفيسة المستقيمة !

فإذا **اعتدل لون الطائر** ، دل على اعتدال تركيبه فصَلَح حينئذ لتقريبه وتأديبه ، فأُشْتَرى بالتخريج ، ثم أعرف الطريق بالتدريج ، ثم يحملونى كتب الأسرار ، ولطائف الأخبار ، فأطير ، وأقطع الهواء المستطير ، خائفا من خارج[٨٧] جارح ، حاذراً من سائح سَانح ،[٨٨] جازعا من رائح زايح[٨٩]

أكابد الظمأ فى الهوى والهواجر ،[٩٠] وأطوى على الطوى فى المحاجر[٩١] ، فلو رأيت حبةَ قمح مع شدة جوعى عدلت عنها ،

---

(٨٦) الأبلق : ماكان فى لونه سواد وبياض .

(٨٧) خارج يقطع الطريق عليها ويبرز لقتالها .

(٨٨) الحاذر المتأهب المستعد . ويقال سنح الطير مرّمن المياسر إلى الميامن .

(٨٩) جزع منه لم يصبر عليه فأظهر الحزن أو الكدر . وزاح عن المكان تباعد وزال وذهب وتفرق . فهى فى خوف ممن يقطع عليها الطريق وحذر ممن يفد عليها ، وجزع من الفراق والرواح .

(٩٠) الهواجر جمع هاجرة . شدة الحر وقت الظهيرة عندما يهجر الناس الشوارع إلى الحدائق والظلال .

(٩١) الطَّوى : الجوع . وأطوى : أتعمد الجوع . والمحاجر جمع محجر . ماحول القرى كالحدائق .. والفقرة التالية توضح ذلك .. فهى تتعمد الجوع خوفا من كمين !

وذكرت ماجرى على آدم منها ، فأرتفعُ خشيةً من كمين مدفون ، أو شرك يعيقنى فأنقلب بصفقة مغبون ،[92] فإذا وصلت إلى مأمنى ، وحللت فى موطنى ، أديت ماحملت ، وأخبرت بما عملت ، فهنالك طوقت ، وبالبشارة خلقت ، وأشكر الله على ماوفقت .

وقال ابن الوردى فى إشارة الحمامة :

فبينما الباز[93] سكران بما بان له من البان ،[94] وإذا حمامة قد وقفت أمامه ، وقالت :

كم تفتخر وأنت عظمٌ نَخِر !! أنت من آلة اللعب والصيد ، وأنا من آلة الجد والكيد !![95]

أنا مع الطوقِ والخضاب من حملة الكتاب !!

ومع حذرى من شَرَك الشِّرك ،[96] وخوفى من فَخِّ الإفك حملت الأمانة التى أبت الجبال عن حملها ، وامتثلت مرسوم ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ [النساء : ٥٨] .

فلما أوصلت الحقوق ، أمنت العقوق ، وقوبلت بالبشائر والخلوق[97] .

---

(٩٢) المغبون الخاسر . والمغبون فى البيع والشراء : المخدوع المغلوب .

(٩٣) الباز : طير من الجوارح يُصادبه وهو أنواع كثيرة .

(٩٤) والبان : شجر .

(٩٥) وشتان بين مايُلعب به ويستخدم فى الصيد ، وبين مايُستخدم فى الجد وعظائم الأمور ، وحسن التدبير فى الموقف الخطير .

(٩٦) ومع حذرى مما ينصبه الأعداء لى من شراك ، أو يضعونه فى طريقى من فخاخ كاذبة خادعة لم أتخل عن حمل الأمانة .

(٩٧) الخلوق : ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران .

ومما أعجب العالمين أنى مخضوب البنان ولى يمين[٩٨] أقول للملك :

•دع الاهتمام لاتلعب بى فأنا الحمام ، فمهما حدث على البعد من أخصامك ، أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك[٩٩] .

كتمت عن الناس سرى ، وأبْهمت بين الغنا والنوح أمرى[١٠٠]

رأوا خضابى وطـــــوق	**فاستنكفوا من بكـــائى[١٠١]**
ثم ادعَــوْا أن «رَبِّـــى»	**منــــاسب لغنـــــائى**
فقلت : كُفُّوا فهـو ربِّى	**بادٍ بغير جَفَـــــــاءِ**
فالخضب من فيض دمعى	**والطـــوق عقـــد ولائى**



---

(٩٨) اليمين : البركة والقوة ، يقال : فلان عندنا باليمين أى بالمنزلة الحسنى .

(٩٩) اقتباس جميل من القرآن الكريم ﴿**قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين**﴾ [النمل : ٣٩] .

(١٠٠) فلست تدرى أهى تغنى أم تنوح ؟ المهم أنها بسرها لاتبوح !!

(١٠١) استنكف : استكبر ، واستنكف من كذا ـــ كما هنا ـــ امتنع أنفة وحمية واستكباراً ، وراحوا يتساءلون كيف تختضب وتتحلى بطوق ثم تبكى ؟ إنّ ذا لعجيب !!

ذكر حمام الرسائل

قال الحافظ عماد الدين بن كثير فى تاريخه :

فى سنة سبع وستين وخمسمائة اتخذ السلطان نور الدين الشهيد **الحمام** الهوادى ؛ وذلك لامتداد مملكته واتساعها ؛ فإنها من حد «**النوبة**» إلى «**همذان**» .

فلذلك اتخذ فى كل «**قلعة**» و«**حصن**» الحمام التى ترسل الرسائل إلى الآفاق ، فى أسرع مدة ، وأيسر عدة ، وماأحسن ماقال فيهن **القاضى الفاضل** :[١٠٢]

«الحمام هو ملائكة الملوك»

وقد أطنب[١٠٣] فى ذلك عماد الكاتب ، وأطرب ، وأعجب ، وأغرب !!

وفى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ، اعتنى الخليفة الناصر لدين الله بحمام البطاقة ، اعتناءً زائدا ، حتى صار يكتب بأنساب الطير المحاضر : إنه من ولد الطير الفلانى !

وقيل : إنه بيع بألف دينار !!

وقد ألف القاضى **محى الدين بن عبد الظاهر** فى أمور هذه الحمام كتابا سماه :

---

(١٠٢) القاضل الفاضل : واحد من أصحاب مدارس النثر فى العصر العباسى كابن المقفع ، والجاحظ ، وابن العميد ، والقاضى الفاضل ، ولكنه حذا حذو ابن العميد فى إسرافه فى استخدام المحسنات واهتمامه بالصنعة .

(١٠٣) أطنب : أطال وعكس الإطناب الإيجاز .

«تمائم الحمائم»

وذكر فيه فصلا فيما ينبغى أن يفعله «**المبطّق**»(١٠٤) وماجرت به العادة فى ذلك فقال :

إن الجارى به العادة أنها لاتحمل البطاقة إلا فى جناحها لأمور :

منها حفظها من المطر ، **ولقوة** الجناح .

والواجب أنه إذا بطق من مصر ، لايطلق إلا من أمكنة معلومة :

فإذا سرح(١٠٥) إلى الإسكندرية ، فلا تسرَّح إلا من «**مُنْية عقبة**» بالجيزة .

وإلى الشرقية : فمن مسجد التين ظاهر القرافة .

وإلى دمياط : فمن بسوس .(١٠٦)

والذى استقرت عليه قواعد الملك أن طائر البطاقة لايلهو الملك عنه ، ولايغفل ، ولايمهل لحظة واحدة فيفوت مهمات لاتستدرك ، إمّا من واصل ، وإما من هالب ، وإما من متجدد فى الثغور .

ولا يقطع البطاقة من الحمام إلا السلطان بيده من غير واسطة أحد ، فإن كان يأكل لايمهل حتى يفرغ ، أو نائما لايمهل حتى يستيقظ بل ينبه .

قال : وينبغى أن يكتب «**البَطّاق**» البطاقة فى «**ورق الطير**»(١٠٧) المعروف بذلك .

---

(١٠٤) المبطق الذى يضع البطاقات فى جناح الحمام .

(١٠٥) أطلق .

(١٠٦) فمن بسوس بشط بحر «**منجى**» .

(١٠٧) نوع خاص من الورق عرف بذلك .

قال : ورأيت الأوائل يكتبون فى أولها : البسملة ، وأنا ماكتبتها إلا ببسملة للبركة .

ويؤرخ **بالساعة** ، **واليوم** ، لابالسنة !![١٠٨]

ومن فصل فى وصفها لتاج الدين أحمد بن سعيد بن الأثير :

طالما جازت الرياح ، فأصبحت باخعةً[١٠٩] وراءها تبكى عليها السحب ! ، وصدق من سماها «**أنبياء الطير**» لأنها مرسلة «**بالكتب**» !!

وفيها يقول أبو محمد بن علوى بن «أبى عقبال القيراونى» :

خُضْر تفوقُ الريحَ فى طيرانها ... يابُعْدَ بين غدُوِّها ورواحها
تأتى بأخبار الغُدُوِّ عَشيَّةً ... لمسيرِ شهرٍ تحت ريش جناحِها[١١٠]
وكأنما الروحُ الأمينُ بوحيه ... نفثَ الهداية منه فى أرواحها

وقال غيرُه :

فحبذا الطائر الميمون يطرقنا ... فى الأمر بالطائر الميمون تنبيها
فاقت على الهدهدِ[١١١]**المذكور إذ ... حَملَت كتب الملوك وصانتها أعاليها**
تأتى بكل كتابٍ نحو صاحبه ... تصون نظرته صونا وتُخفيها

---

(١٠٨) ويقول المؤلف فى كتابه «حسن المحاضرة» : وينبغى أن لايكثر فى نعوت المخاطب فيها ، ولا يذكر فيها حشو الألفاظ ولابد أن يكتب وصف الطائر ورفيقه إن كانا طائرين قد سرحا ، حتى إن تأخر الطائر الواحد روقب حضوره ، ولايعمل للبطائق هامش ، وجرت العادة أن يكتب فى آخرها «**وحسبنا الله ونعم الوكيل**» وذلك حفظا لها .

(١٠٩) تكاد تقتل نفسها ألما وحسرة وندما على تخلفها عن مسابقة الحمائم !!

(١١٠) الغدو أول النهار والعشية آخره .

(١١١) المذكور فى القرآن حين جاء سليمان من سبأ بنبأ يقين .

فما تُمكّن غيرَ الشمسِ تَنْظُرُه ولاتجوز أن تُلْقيه من فيها

منسوبة لرسالات الملـوك فيالمنسوبِ تسمو ويدعوها مُسَمِّيها

أكرم بجيش سعيد ياسعاديه مما يشكل فيها ذكر حاكيها

حمامتا الغارِ يومَ الغارِ حُرْمَتُه فيالها وقفةً عزّت مساعيها

وقوفُه عند ذاك الباب شرَّفه وللسعادة أوقـات تواتيها

ويومَ فتح رسولِ الله مكة عنـ ـد الدخول إليها من بواديها

صنعت تُظَلِّلُ من شمسٍ كتيبةَ الخضراءِ مُظْهِرةً فيه تواليها

تظللت فما كانت تودّ هوى لو قابلتها بأشواقٍ فتنعيها

فعندما حظيت بالقرب آمنها فَشُرِّفَت بعطايا جَلَّ مُهديها

فما يحل لذى حيلة تناولها ولاينالُ المنى بالنار مُصْليها

ولاتطير بأوراق الفريخ ولا تسير عنها بما فيه أساميها

سمت بملك المعالى غرَّذى دنس لاترضينهم ولوجُزَّت نواصيها

وانظر لها كيف تأتى للخلائف من آل الرسول لحبٍّ كاملٍ فيها

من المقامِ إلى دارِ السلامِ ولم يمضِ النهارُ لعُزْمٍ فى دواعيها

وربما ضلَّ نحو الهندِ ملتقطاً حباتِ فُلْفُلَةٍ وارتدَّ مبطيها

فجاء فى يومه فى إثر سابقةٍ حِفْظاً لحقِّ يدٍ طابت أياديها

مناقبٌ لرسولِ الله أيْسَرُها لنـا نبوتـه الغـراء يكـفيها



وصف القاضى الفاضل لها

ومن إنشاء القاضى الفاضل فى وصفها :

سرحت لاتزال أجنحتها تحمل من البطائق أجنحة ، وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة ، وتحمل من الأخبار ماتحمله الضمائر ، وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر ، وتُزْوَى لها الأرض حتى ترى ماسيبلغه ملك هذه الأمة ، وتقرب منها السماء حتى ترى مالايبلغه وهم ولاهمة .

وتكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعا ، وتركب الجو بحرا تصطفق فيه هبوب الرياح موجاً مرفوعا ، وتعلق الحاجات على أعجازها ، ولاتصرف الإرادات عن إنجازها .

ومن بلاغات البطائق استفادت ماهى مشهورة به من السجع ، ومن رياض كُتبها أَلِفَتْ الرياض ، فهى إليها دائمة الرَّجع .

وقد سكنت النجوم فهى أنجم ، وأعدت فى كنانتها فهى للحاجات كالأسهم ، وكادت تكون ملائكة ؛ لأنها رُسُل !

وإذا نيطت بها الرِّقاع صارت أولى أجنحة مثنى[١١٢] وثلاث ورباع ، وقد باعد الله بين أسفارها ،[١١٣] وقربها ، وجعلها طيف خيال اليقظة الذى صدق العين وماكذبها .

(١١٢) اقتباس من الآية الكريمة ﴿جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾ [فاطر :/١]

(١١٣) اقتباس من الآية الكريمة ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا﴾ [سبأ :/١٩]

وقد أخذت عهود أداء الأمانة فى رقابها أطوقاً ، وأدتها من أذنابها أوراقا .

وصأرت خوافى من وراء الخوافى ،[١١٤] وعقلت سرها المودع بكتمان وسحبت عليه ذيول ريشها الصوافى ، تُرْغِمُ أنف النوى[١١٥] بتقريب العهود ، وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ أنجم السعود .

وهى للطير أنبياء لكثرة ماتأتى من الأنباء ، وله خطباء لأنها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء .



(١١٤) الخوافى ريشات من الجناح إذا ضم الطائر جناحيه خفيت . وفي العبارة جناس لطيف بين كلمتى خوافى والخوافى ؛ فالأولى يراد بها « مختفية » والثانية يراد بها الريشات .

(١١٥) النوى البعد .

شيخ القاضى الفاضل يصفها

وقال فى وصفها ذو البلاغتين : السيد أبو القاسم شيخ القاضى الفاضل : وأما «**الْحَمَامُ الرَّسائلى**» .. فهى من آيات الله المستنطقة الألسن بالتسبيح ، العاجز عن وصفها إعجاز البليغ الفصيح ، فيما تحمله من البطائق وتَرِدُ بِه سرعةً من الأخبار الواضحة الحقائق ، وتعاليه فى الجو محلقا عند مطاره ، وتهدِّيه على الطريقة التى عُلِّمها ليأمن من إدراك فوت الإدراك وأخطاره ، ونظره إلى المقصد الذى يُسَرَّحُ اليه من عَلِيٍّ ، ووصوله فى أقرب الساعات بما يصل به البريد فى أبعد الأيام من الخبر الجلىّ .[116]

---

(١١٦) جاء فى «**تاريخ البريد فى العالم**» للأستاذ جمال العرابى : كلمة البريد لغة المراد منها المسافة المعلومة ، وقد حددت هذه المسافة فى العصور القديمة باثنى عشر فرسخاً . واختلف الأولون فى لفظه فقيل إنه عربى ، ودلل على عربية اللفظ «**الخليل**» إمام اللغة العربية حيث قال : إنه مشتق من بردت الحديد إذا أرسلت مايخرج منه ، وأنه مأخوذ من أبردته إذا أرسلته ؛ أو من برد إذا ثبت لأنه يأتى بما تستقر عليه الأخبار .
وأطلقوا عليه الرسول والمراسلة ، وكان اليونانيون الأقدمون يسمونه «**ملاكا**» تشبيها له برسالة جبريل عليه السلام . وعرف فى الصين باسم «**الرائد**» .
وذهب آخرون إلى أنه فارسى معرب ، وأصله بالفارسية : «**بريده دم**» وترجمتها : «**مقصوص الذنب**» وذلك لأن ملوك الفرس كان من عاداتهم إذا خصصوا دوابَّ لحمل البريد إلى مختلف البلدان قطعوا ذيولها تمييزا لها ، وعلامة على أنها من دواب البريد .
وبدأ الأهتمام باستخدام الحمام الزاجل فى العصور القديمة والوسطى فى أثناء الحروب ، فقد كان من أحسن طرق التراسل وأسرعها فضلا عما يمتاز به الحمام من قدرة على الاختفاء عن أنظار الأعداء فى أمن وسلام . وكان يعرف وقتئذ بحمام البطاقة : (نسبة إلى كلمة « بتاكيون » اليونانية ومعناها « رقعة ») وأول من اتخذ الحمام وسيلة فعالة فى الحرب ■

وبجيئه معادلا كرءوس السفار[117] لعله مُسَامِتاً وإيثاره بالمتجددات فكأنه ناطق وإن كان صامتا .

وكونه يمضي محمولا على ظهر المركوب ، ويرجع حاملا على ظهره المكتوب .

ولايُعَرِّج على تذكار الهديل ، ولاتكرار الهدير ، ولايسام من الدواب فى الخدمة زائداً على التقدير . وفى تقدمه بالبشائر ، يكون المعنى بقولهم : «**أيمن طائر**» ، ولاغَرْوَ أن فارق رسُلَ أهلِ الأرض وفاقَهم وهو مرسل والعنان عنانُه ، والجو ميدانُه ، والجناح مركَبُه ، والرياح موكبُه ، وابتداء الغاية شوطة ، والشوق إلى أهله سوطُه ، مع أمنه مايُحدِثُ متاعب السفار[118] ومخبآت القفار ، من مخاوف الطوارق ، وطوارق المخاوف ، ومتالف الغوائل ، وغوائل المتالف ، إلا مايشذ من اعتراض خارج جارح ، وانقضاض كاسب كاسر ، فتكفيه سعادة الدولة تامينه ، وتصدّ عنه تصمِيمه ، لأنه أحد جيشيها من الطير اللذين يُحدثان فى أعدائها : هذا بالإنذار الجاعل كيدهم فى تضليل ،[119] وذاك بما ترى رايتها المنصورة عليهم من تظليل .

---

* كان «**أنطونيوس**» الروماني فى سنة ٤٣ قبل الميلاد في حصار مدينة «**مورينا**» على أنه بعد هذا التاريخ لم يستخدم الحمام إلا فى سنة ١٠٩٨م عند دخول الإفرنج مدينة «**أورشليم**» . وقد استخدمه العرب فى حروبهم ضد «**المغول**» كما استخدمه الأتراك فى عهد السلطان «**سليمان**» كما استخدمه صلاح الدين فى حصار عكا .

(١١٧) السفار حديدة أو جلدة توضع على أنف البعير بمنزلة الحكمة للفرس . ويقال سمت سمتا أى لزم الطريق .

(١١٨) السفار . يقال سافر سفاراً ومسافرةً مضى .

(١١٩) اقتباس من الآية الكريمة فى سورة الفيل ﴿**ألم يجعل كيدهم فى تضليل**﴾ .

القاضى مُحْى الدّين بن عبد الظاهر[120] يصفها

وقال القاضى محى الدين بن عبد الظاهر :

وأما الحمام الرسائلى : فكم أغنت المرء عن جوب القفار ، وكم قدت جنوبُها على أسرى أسرار !!

وكم أعارت السهام إجنحة فأحسنت بتلك العارية المطار ![121]

وكم قال جناحُها لطالب النجاحَ لاجناح[122] !! وكم سرت فحمدت المسار إذا حمد غيرها من السارين[123] الصباح !!

وكم ساء وقتُ الصباح والجنائب ،[124] ففارقتها ولم تحوج سلامة المشتاقين إلى مُتَّكأ كاهل الرياح .

---

(١٢٠) هو الكاتب الشاعر عبد الله بن عبد الظاهر المصرى (٦٢٠ ـــ ٦٩٢ هـ) كان من المتعصبين لطريقة القاضى الفاضل فى التزام السجع واتباع المحسنات البديعية ، وبخاصة التورية ، وكان رئيس «**ديوان الإنشاء**» فى زمن الظاهر بيبرس .

(١٢١) يقال : سهم مريش ومُرَيَّش ، وريشت السهم ثلاث ريشات : أساس البلاغة . وهى تساعده على الانطلاق إلى الهدف فى سرعة .

(١٢٢) لاجناح : فيها تورية جميلة مقصود بها لاحرج .

(١٢٣) فى المثل : عند الصباح يحمد القوم السرى . والسُّرى : المشى ليلا .

(١٢٤) يقال فرس جنيب ، وخيل جنائب . وجنب البعير قاده . والمراد أنها حتى فى الأوقات غير المناسبة سواء من ناحية الجو .. أم من ناحية وسائل الارتحال ؛ فإنها تتحرك فى مثل ذلك الوقت .

كم مسبب ملك كلًّا منها ملك ، وكم قال مسرحها لمجيئه بها قرة عين لى ولك .[١٢٥]

كم أجملت فى الهواء **تقلُّباً** ، وإذا تغنت الحمائم على الغصُون صمتت عن الهديل والهدير[١٢٦] **تأدبا** .

كم دفعت شكًّا **بيقينها** ، ورفعت شكوى **بتبْينها** ، وكم أدت أمانة ولم تعلم إجنحتها مافى شمالها ، ولاشمالها مافى يمينها[١٢٧] .

وكم التفّت منها الساق بالساق ، فأحسنت لربها المساق[١٢٨] ، وكم أخذت عهود الأمانة فبدت أطواقا فى الأعناق ، ويقال : « **ماتضمنته من البطائق بعض ماتعلق بها فى الرياض من الأوراق** » .

تسبق اللَّمْح[١٢٩] ، وكم استفتح بها البشير إذا جاء بالفتح الطرف السابق ، والطرف الرامس الرامق[١٣٠] .

---

(١٢٥) اقتباس جميل من الآية الكريمة ﴿**وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك**﴾ [القصص : ٩/] .

(١٢٦) الهديل : صوت الحمام ويقال هدل : إذا صَوَّت . أما هدير فيقال : هدر الحمام إذا قرقر وكرر صوته فى حنجرته .

(١٢٧) اقتباس من الحديث الشريف .. « **ورجل تصدق أخفى .. لاتعلم شماله ماتنفق يمينه** » وذلك كناية عن الحرص على أداء الأمانة فى صمت وكتان ! .

(١٢٨) اقتباس جميل من الآية الكريمة ﴿**والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق**﴾ [القيامة : ٢٩ : ٣٠]

(١٢٩) اللمح . البصر الممتد إلى الشيء .

(١٣٠) رمقه رمقا : أطال النظر إليه ، والمراد أنه عندما يتم الإخبار بالنصر ممن يرصدون ذلك من « **العيون** » فإن الحمائم تطلق من أبراجها حاملة البشريات طارقة الأبواب ، وبين البروج والطارق تورية جميلة توحى بقرب مابين إطلاقها من بروجها وإبلاغها أنباء النصر .

وماتليت «**سورة البروج**» إلا وتلت «**سورة الطارق**» كم أنسى مطارها عدو السلكة والسليك[١٣١] ، وكم غنيت فى خدمة سلطانها عن الغِنا[١٣٢] ، وقال كل منهم لرفيقه إليك عن الأيك ، وقال كل منهما لرفيقه : ماأحوج تصديقهما فى رسالتهما إلى الإعزاز بثالث[١٣٣] ، وكم قيل فى كل منهما لمن قام : هذا طائر فى خدمة أبناء يافث[١٣٤] !!

كم سرح مسرحا بإحسان ، وكم طار فى أفق فاستحق أن يقال لهما : «**فارسا سحاب**» إذا قيل لغيرهما : «**فارسا رهان**» ، حاملة علم من هواء علم به منها .

تغنى السفار والسفارة فلا تحوجهم إلى الاستغناء عنها ، تغدو وتروح ، وبالسر لاتبوح ، فكم غنيت باجتماعها بإلْفها عن أنها تنوح .

كم سارت بأمر سلطانها أحسن السير ، وكم أفهمت أن ملك سليمان إذا سخر له منها فى مهماته الطير ، أسرع من السهام المفوقة ، وكم من البطائق مخلقة وغير مخلقة .

كم ظللت من كيد ، وكم بدت فى مقصورة تصبح فى السناء والسنا دونها «**مقصورة ابن دريد**» .

يسرح كما يسرح القبول الإدون رسالته المقبولة ، وطلب السبق فلم

---

(١٣١) السلكة والسليك : يقول القاموس المحيط : سُلَيك على وزن زبير ابن يثربى بن سنان بن سُلكة كهمزة . وهى أمه شاعر لص فتاك عدّاء .

(١٣٢) الغنا .. مراد بها الغناء ، فهى لم تعد بحاجة إلى الغناء .. والوقوف على شجر الأيك ، فقد أغناها عن ذلك ماهى فيه من خدمة السلطان .

(١٣٣) اقتباس كريم من الآية الشريفة : ﴿**فكذبوهما فعززنا بثالث**﴾ [يس : ١٤/] .

(١٣٤) أبناء يافث : يافث بن نوح أبو الترك ويأجوج ومأجوج . القاموس المحيط .

يرض بعرف البرق مبهرحا ، ولا استطلاء صفحته المصقولة .

وهم جواد النسيم فقصر ، وأمسيت أذياله بغرق السحب مبلولة .

وأرسله ، فأقر الناس برسالته وكتابه المصدق وانقطع كوكب الصبح خلفه ، فقال عند التقصير كنت نحّاباً وعلى يدى مخلق .

يؤدى ماجاء على يديه من الترسل ، فيهج الأشواق ، وما برحت الحمائم تحسن الأداء فى الأوراق .

وصحبناه على الهوى فقال : ماضل صاحبكم وماغوى ، ومن روى عنه حديث الفعل المسند فعن عكرمة[١٣٥] قد روى .

يطير مع الهوى لفرط صلاحه ، ولم يبق على السرِّ المصون جناح إلا دخل تحت جناحه .

إذا برز من مقفصه لم يبق للصرح الممرد[١٣٦] قيمة بل ينعزل بتدبيج أطواقه ، وتعلق عليه من العين التميمة .

ماسجن إلا حمد على السجن ، وضيقته الأطواق ؛ ولهذا حمدت عاقبته على الإطلاق[١٣٧] .

ولاغنّى على عودٍ إلا سالت دموع الهندى من حدائق **الرياض** ، ولا أطلق من كبد الجو إلا كان سهما مريشاً بلغ به **الأغراض**[١٣٨] .

---

(١٣٥) عكرمة من أسماء الحمامة ، ولذلك حسنت التورية بعد قوله : «**روى عنه حديث الفعل المسند**» .

(١٣٦) فهو زينة الصروح والمنازل .

(١٣٧) تورية جميلة أى حمدت فى جميع الأحوال سواء سجن أم أطلق . ويتبادر إلى الذهن على إطلاقه من سجنه .

(١٣٨) هو عند إطلاقه كالسهم المريش فى سرعة الوصول إلى الغرض .

كم علا ؛ فصار بريش القوادم كالأهداب لعين الشمس ، وأمسى عند الهبوط لعيون الهلاك النعلية كالطمس .

فهو الطائر الميمون ، والغاية السباقة ، والأمين الذى إذا أودع أسرار الملوك حمينا بطاقة .

فهو من الطيور التى خلا لها الجو فنقرت ماشاءت من حبات النجوم ، والعجماء التى من أخذ عنها شرح **المعلقات** فقد أعرب عن دقائق الفهوم .

والمقدمة والنتيجة للكتاب الحجلى فى منطق الطير ، وهى من **حملة الكتاب** الذى إذا وصل القارىء منه إلى **الفتح** يتهلل لحبه الخير .

إن تصدَّر البازى بغير علم فكم جمعت بين طرفى كتاب وإن سأله العقيان عن بديع السجع أحجمت عن رد الجواب . نعم رعت النسور بقوة جيف ، ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف .

ماقدمت إلا وأرتنا شمائلها اللطيفة نعم القادمة ، وأظهرت لنا من خوافيها ماكانت له خير خاتمة .

كم أهدت من مخلفتها وهى غادية رائحة ، وكم حنَّت إليها الجوارح وهى — أدام الله إطلاقها — خير جارحة .

وكم أدارت من كئوس السجع ماهو أرق من قهوة الإنشاء ، وأتيح على زهر المنثور من صبح الأعشاء .

وكم عامت بحور الفضا ولم تحفل بموج الجبال ، وكم جاءت ببشارة ، وخضبت الكف ، ورمت من تلك الأنملة قلامة الهلال .

وكم زاحمت النجم بالمناكب حتى ظفرت بكف الخضيب وانحدرت كأنها دمعة سقطت على خد الشفيق لأمرٍ مريب .

وكم لمع فى أصيل الشمس خضابُ كفها الوضاح ، فصارت بسموها وفرط المهجة كمشكاة فيها المصباح .

والله يديم بأفنان أبوابه العالية ألحان السواجع ، ولا برح تغريدها مطربا من المبادىء والمراجع .



أَبُوا الْعَلَاءِ المعرِّىّ يُخَاطبها

وقال أبو العلاء المعرى يخاطب الحمامة :

ياحاملةَ طَوْقٍ من الليلِ ، وبُرْدٍ من الربيع مكفوف الذيل أوفَتْ على الأشياء[١٣٩] ..

فقالت للكثيب : ماشاء ، مسمعه غير مفهوم ، لا بالرمل[١٤٠] ولا بالمذموم .. إن كان سجعها قريض[١٤١] ، فقد ماد بشخصها العود ، وفقيدها لايعود ، تندب شوقا هديلاً فات ، وأتيح له بعض الآفات ، وليس الأشواق لذوات الأطواق ، ولا عند المساجعة عَبْرة مراجعة .. إنما رأت الشرطين قبل البطين ، والرشا قبل العشا ، فحَكت صوت الماء فى الخرير ، وأذنت برأى دائمة التكرير ؛ فقال جاهل : فقدت حميما ، وثكلت ولداً قديما .

وهيهات ياباكية .. أصبحت فصدَحْتِ ، وأمسيت فتناسيت[١٤٢] .

---

(١٣٩) أوفت على الأشياء : أشرفت عليها .

(١٤٠) الرَّمَل بحر من بحور الشعر .

(١٤١) السجع صوت الحمائم ، ويقال سجع الخطيب أى أتى بكلام مقفى له فواصل ، وسجعت الحمامة هدرت ورددت صوتها . وسجعها يشبه القريض وهو الشعر ، ولهذا يميل الغصن طربا من تحتها لسماع صوتها .

(١٤٢) تصدح فى الصباح حتى إذا جاء المساء تناست ماكانت فيه .

لاهام .. لاهام[١٤٣] .

مارأيت أعجب من هاتف الحمام .. سلم فناح وصمت وهو مكسور الجناح[١٤٤] .



(١٤٣) لاهام لاهام .. أهى دعاء منها ألا يهيم صاحبها على وجهه ويعود إلفها إليها !! وألا يحب غيرها ؟!! [فيقال هام بكذا أحبه ، وهام على وجهه ذهب لايدرى أين يتوجه !]

أم هى هتاف للسلام .. فالهام جمع هامة وهى الرأس فهى لاترغب فى رؤية القتلى .. وتدعو ألا ترى رءوساً ؟!

(١٤٤) مصدر العجب أنه ينوح عند سلامته ويبكى . بينما يصمت وهو مكسور الجناح !! أرأيت أعجب من هذا ؟!

والشريف الموسوى يقول فيه شعرا !!

وقال الشريف الموسوى فى الحمام المرسل[١٤٥] .

ومُبَلِّغ الأخبارِ فى أوقاتِها ... للنازحين وأذاناً بالكتاب

يَسْبى[١٤٦] الغزالة والغزال بعطفه ... لمعانُ برقٍ، وانقضاض شهاب

تطوى المسافاتِ البعيدة مثلما ... تُحْصى الألوف أنامِلُ الحُسَّاب[١٤٧]

وقال فى الأحمر المسرول :

وأحمَرَ فى برج الحمام كأنه ... من الأطلس الروحىّ مُسَرْبَلٌ سربالا[١٤٨]

رأى الشَّفَقُ الشرقى خِفَّةَ نعته ... فألْبَسهُ منه قميصاً وسروالا[١٤٩]

وقال فى الأصفر :

وأصفرَ فى الحمامِ تَحْسَبُه ... كأس عُقارٍ صُفْراً تلهَّبُ[١٥٠]

من عجب يشبو الرياح إذا ... ماطار فيها وريشه ذهبُ[١٥١]

(١٤٥) إنه يبلغ الأخبار لمن نزحوا عن الديار ، ويعلمهم ويحمل إليهم الكتب والرسائل .

(١٤٦) سباه يسبيه أسره بحبه واستولى على عقله . والعطْف الجانب والغزالة أنثى الغزال وقد عرفت بالجمال ، والغزالة الشمس عند ارتفاعها .. وسر جماله الآسر مافيه من لمعان ريش ، وخفة حركة .

(١٤٧) المراد السرعة ، وقد كانوا ـــ قبل ظهور الآلات الحاسبة يعدون على أصابعهم وأطراف أناملهم ، ويحصون الألوف جمعا فى لحظات معدودات .

(١٤٨) الأطلس ثوب من حرير . ومُسَرْبل : مُغطًى ومكسُوّ .

(١٤٩) فى البيت الثانى حسن تعليل لما يبدو فيه من الحمرة ، فقد عطف عليه الشفق بلونه الأحمر فكساه قميصا جسده وسروالا يغطى رجليه ، لما رأى خفة نعله !!

(١٥٠) العقار الخمرة . والصُّفر : الذهب . تلَهَّب : تتلهب وتتوهج .

(١٥١) يشبو الرياح : يعلوها .

وقال فى الأبيض :

يحكى وقد فتن الحمام أبيض خلع الصباحُ عليه خير شعار[١٥٢]
نجماً[١٥٣] تشبه بالحمام فطار فى دُهمٍ وفى غير .. كشعلة نار

وقال في الأبلق[١٥٤] :

وأبلقَ فى الطير لا ينكره ذوو الحجى[١٥٥]
قميصه مُقَسَّمٌ بين الصباح والدُّجَى[١٥٦]

وقال أبو عبد الله بن قاضى مِيله :

ورقاءُ تأرق مُقْلَتى لبكائها ليلاً إذا ماهَوّمت سُمَّارُه[١٥٧]
إيه[١٥٨] بعشك ياحمامةُ خَبّرى كيف الكثيب وذاك عَرَارُه

وله :

ورقاء صافيةُ الجناح تستَّرت عنا بغُصْنى : بانةٍ وأراك[١٥٩]

---

(١٥٢) لقد خلع الصباح عليه من نوره الأبيض فكساه خير شعار ، والشعار ماتحت الدثار من اللباس وهو مايلى الجسد ، والدثار مافوقه .

(١٥٣) وهو من شدة بياضه ولمعانه يحكى نجماً فى تحركاته وسط الظلام يضىء كشعلة نار . والدُّهم : ثلاث ليالٍ فى آخر الشهر القمرى . والدهماء : ليلة التاسع والعشرين من الشهر القمرى .

(١٥٤) الأبلق : مافى لونه سواد وبياض .

(١٥٥) ذوو الحجى : أصحاب العقول والفهم .

(١٥٦) الدجى الظلام فلونه (قميصه) مزيج من الأسود والأبيض .

(١٥٧) هوَّم السُّمار : هزوا رءوسهم من النعاس . وعندما ينام سُمَّار الليل نرى شاعرنا أرّقه بكاء الورقاء (الحمامة) فلا ترى مقلته (عينه) النوم .

(١٥٨) إيه : اسم فعل للاستزادة .. والمراد زيدينى أيتها الورقاء وذكرينى بما مضى ، وحديثنى عن الكثيب وما حوله من نبات القرار والعرار : بهار ناعم أصفر طيب الرائحة .. والنرجس البرى . والواحدة عرارة .

(١٥٩) هذه الورقاء وقفت تغنى من وراء غصنى بانة وأراك فحركت الأحزان =

غنَّت فأذكرت المشوق ببثها وتمايلَتْ فِعْلَ السقيمِ الشاكى
وعجبتُ من ضِدَّين فى أوصافِها خُلُق الخليع ولبسةُ النّسَّاك

وقال خلف بن المازنى يصف حمامة :

مطوقـــةٌ كساهـــا الله طوقـا لم يكـن ذهبـا(١٦٠)
جَمودُ العيـنِ مبكاهـا يزيد أخا الهوى نصبا
مفجعـة بكت شجـواً فبت لشجوهـا وصبـا
تَرِفُّ عليـه إمَّـا مال من شوق أو انتصبا
ومافغرت فماً ربـكت بلا دمع لها انسكبا



= وأثارت الأشجان ، وذكرت المشوق بأحبابه . (بانة واراك) البان شجر معتدل القوام لين ورقه كالصفصاف واحدته : (البانة) يشبه به القَدُّ ؛ لطوله . والأراك شجر واحدته (أراكة) يتخذ منه السواك . « إنها ورقاء .. منقطة بالبياض والسواد ، لها جناح صاف قد اعْتَلَتْ غصن بانةٍ أو غصن أراكة ، وأخذت تشدو فهاجت أشواقنا لفراق أحبابنا بما بثت من لواعج الأسى والشوق ، وتمايلت فى غصنها ، كأنها سقيم يشكو مرضه لعُوَّاده ، وعجبت من أنها حين تغنى تمثل الخليع المتهالك فى الحب ، وحين تستتر عنا وتلبس مُسُوح الليل تبدو كالناسك يتبتل فى محرابه » [وصف الطبيعة وتطوره فى الشعر العربى للسباعى بيومى ورفاقه] .

(١٦٠) هذه المطوقة طوقها من صنع الله فلا يدانيه أى طوق من صنع البشر وإن كان من ذهب .

إنها جَمُود العين شديدة الحزن تبكى بغير دموع .. تحرك أحزان المحبين ببكائها وتزيدهم تعبا ونصبا .

إنها مفجَّعه تتوجع مما ألم بها من فقد إلْفِها .. بكت شجوا : شوطا من البكاء فبات الشاعر لشجوها متعبا مريضا متوجعا ناحل الجسم يشعر بتعب وفتور فى البدن .

آخر طوق الحمامة للحافظ جلال الدين السيوطى
رحمه الله آمين
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم إلى يوم الدين
نقلت هذه النسخة بقلم الفقير إلى ربه ذى العطية
« محمد أبى العينين عطية » على نفقة صاحب السعادة
«أحمد تيمور باشا»
اكثر الله من أمثاله ونفع به وبمكتبته عباده
« آمين »

فهرس

الصفحة

رقم الايداع ٤٢١٤/٨٧

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت: ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١